

بِحُجْرَتِهِ وَمَقَالِ الْعَوِيذِ

oboi.kandi.com

# بِحُورٍ وَمَقَالٍ لِعُوثِيَّةٍ

الدكتور حسين نصار

أستاذ الأدب العربي

عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة سابقاً

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٢٦٢٧٧

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر ت ٥٩٢٢٢٠٠ - فاكس ٥٩٢٦٢٧٧  
ص ب ٢١ توزع الظاهر - القاهرة

رقم الايداع	٢٠٠٣/١٦٢٤٤
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 341 - 118 - 4

# كلمة

أصدرت لى " مكتبة الثقافة الدينية" منذ مدة ما أنتجته من بحوث فى (الشعر العربى) و ( الأدب المصرى) ونشرته فى مجلات علمية مختلفة، فى العالم العربى.

واليوم أصدر فى الكتاب الذى بين يدى القارئ ما لم أنشره فى كتاب قبلا من البحوث والمقالات اللغوية، تكلمة للميادين العلمية التى عنيت بها، وكتبت فيها. عسى أن يجد فيها القارئ طلبه له، أو معلومة تفيده.

والشكر واجب للحاج أحمد انسى عبد المجيد صاحب دار النشر، وفقه الله فيما يقدم من أجل الثقافة العربية والإسلامية.

حسين نصار

obeikandi.com

# التنبه إلى تأثير البيئة<sup>(\*)</sup>

## لولا المجال اللغوي

### ١- المجتمع العربي

أقدم خبر عثرت عليه، وينبئ عن إحساس بتغاير البيئات، يرجع إلى ما قبل الإسلام وينتمي إلى المجال اللغوي. فقد حكم كتاب السيرة النبوية<sup>(١)</sup> أن الأرسقراطية القرشية كانت تهتم بأطفالها مع نساء القبائل النجدية لينشئوا فيها، وأن جد محمد بن عبد الله - نبي الإسلام فيما بعد - حرص على هذا العرف، على الرغم من وفاة والد الطفل، وعدم غناه. حقا كانت هذه الأرسقراطية تبغى النشأة الصحية السليمة لأطفالها. ولكن بعض الدلائل التي لدينا تدل على أنها كانت ترى أن اللغة العربية في نجد أسلم وأصح من عربية مكة. نعرف ذلك من قول النبي (ﷺ): "أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، وأنتي نشأت في بني سعد بن بكر"<sup>(٢)</sup> فقد رد فصاحته إلى سببين، أحدهما نشأته الأولى في بني سعد من أهل نجد. ونتأكد من هذا عندما نعرف أن هذا العرف بقي ملتزما في الإسلام، فقد حرصت عليه أرسقراطية الدولة الأموية، تلك الدولة التي عرفت بالتمسك بالأعراف العربية القديمة. فتمسك خلفاؤها -

(\*) كتاب الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع - جامعة الأمم المتحدة - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت مارس (آذار) ١٩٨٧.

(١) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، ط ٢، تراث الإسلام، ٤ ج (القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، ١٩٥٥)، ج ١، ص ١٦٠.

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، المزهرفي علوم اللغة وأنواعها، ط ٢، ج ٢ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، {د. ت.}، ج ١، ص ١٠٤، وحسين نصار، المعجم العربي: نشأته وتطوره، ٢ ج (القاهرة: مكتبة مصر، {د. ت.}، ج ١، ص ١٦).

على الأقل - ببقاء الاتصال بببدو نجد، وتنشئة أطفالهم عندهم. بل تزوج الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان (٦٦٠ - ٦٨٠) من بدوية حافظت على زيارة البادية، والتتردد إليها، والإقامة فيها مددًا، إذ كانت تفضلها على قصور الخلافة في دمشق، تلك هي ميسون بنت بحدل، التي أنجبت له ابنه ذا المزاج البدوي، وخليفته في الحكم، يزيد الأول (٦٨٠ - ٦٨٣). وأخل الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) بذلك العرف فلم يرسل ابنه الوليد إلى نجد لفرط حبه إياه وخوفه عليه، فأنحرفت لغته عن النموذج النجدى فندم عبد الملك وقال: "أضرُّ بنا حبنا للوليد، فلم نرسله للبادية"<sup>(١)</sup>.

## ٢- المجتمع الإسلامي

ولم أعثر على أخبار من العصر العباسي تؤيد أن الأرسطراطية الجديدة حرصت على هذا العرف. والحق أن هذه الأرسطراطية كانت تختلف عن الأرسطراطية في الدولة السابقة في العرق والفكر والطموح والسلوك، فلا غرابة أن تهجر العرف القديم.

وعلى الرغم من ذلك، لم يندثر الأساس الفكري لهذا العرف، وبقي له تأثير خاص في بعض فئات المجتمع الجديد الذي اختلطت فيه العناصر العربية والعناصر غير العربية التي ضمتها الخلافة - وخصوصا العناصر الفارسية - اختلاطا وثيقا. فعندما عرفت الأرسطراطية عن إرسال أبنائها إلى الصحراء، سعت الفئات العربية المحافظة في السنوات الأولى من حياة المجتمع العباسي، وفئة علماء اللغة - تلك الفئة التي ظهرت منذ أواخر العصر الأموي - كذلك الفئات التي أرادت التشبه بالعرب، سعت كل هذه الفئات إلى عكس الظاهرة. فرحبت بالببدو القادمين من نجد، وشجعتهم على القدوم وقدمت لهم ما استطاعت لتهمون عليهم البقاء المؤقت (كيلا يطول البقاء فتتحرف لغتهم) في

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ١٩٢، ونصار، المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٧.

المدن، وعدتهم زينة المجالس، واستقبلتهم فى قصورها، واستمعت إليهم فى إصغاء وإعجاب بالغين، ودونت أقوالهم<sup>(١)</sup>.

ويتجلى أثر ثانٍ فى فئة علماء اللغة فقد حافظوا على التصور القديم الذى يجعل من لغة نجد مثالا ترنو إليه الأبصار، ويسعى الأفراد إلى معرفته واحتذائه. فدفعهم ذلك إلى الرحلة إلى نجد لتحقيق آمالهم، وأوصوا كل من يريد علم اللغة بذلك<sup>(٢)</sup>. ولسنا نعرف يقينا أول وآخر من قام بهذه الرحلة. والسبب فى ذلك أن العلماء الأوائل كانوا إما عربيا خلاصا مثل أبى الأسود الدؤلى (٦٠٥ - ٦٨٨) ويحيى بن يعمر العدوانى (٧٤٦)، وإما أعاجم عاشوا فى كنف قبائل فصيحة مثل عبد الله بن أبى إسحاق (٦٥٩ - ٧٤٣) الذى نزل آل الحضرمى، وعيسى بن عمر (٧٦٦) الذى نزل فى ثقيف. ولكننا نعرف أن هذه الرحلة صارت عرفا موضع احترام واعزاز منذ أبى عمرو بن العلاء (٦٩٠ - ٧٧١). واستمرت إلى القرن العاشر. قال الجوهري (أبو نصر إسماعيل) (١٠٠٣) فى مقدمة معجمه المعروف الصحاح: "فإنى قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندى من هذه اللغة.. بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتى بها العرب العاربة فى ديارهم بالبادية"<sup>(٣)</sup>.

بل وصل الأمر بالأزهري (أبى منصور محمد بن أحمد) (٨٩٥ - ٩٨١) إلى أن يستثمر الأسر الذى وقع فيه، فى أثناء رحلته إلى الحج، واضطراره إلى الإقامة عند آسريه، عندما وجدهم من العرب الفصحاء. قال فى مقدمة معجمه تهذيب اللغة: "دعانى إلى ما جمعت فيه من لغتهم وألفاظهم والاستقصاء فيما حصلت منها، والاستشهاد بشواهد أشعارها.. تقييد نكت حفظتها ووعيتها عن

(١) السيوطى، المزهري فى علوم اللغة وأنواعها، ج ٢، ص ٣٠٧، ٤٠١ و ٤١٠، ونجيب البهيقي، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى، ط ٣ (١٩٦٧) ص ٤٤٥ - ٤٤٨.

(٢) السيوطى، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٥، وعلى بن يوسف القفطى، إنباه الرواة على أنباه النجاة، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٣) الجوهري، الصحاح، ص ٣٣.

أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرايهم سنيات، إذ كان ما أثبتته أئمة اللغة في كتبهم لا ينوب مناب المشاهدة ولا يقوم مقام الدربة والعادة”<sup>(١)</sup>.

ولم يقف علماء اللغة عند حدود نظرة العرب القديمة بل تخطوها إلى ما وراءها. واعتدل بعضهم فتنع بالحكم على بعض الشعراء الذين قضوا حياتهم خارج حدود نجد بالبعد عن اللغة النموذجية أو عدم أخذ اللغويين عنهم كما أخذوا عن لغة غيرهم. قال الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك) (٧٤٠ - ٨٣١): “العرب لا تروى شعر أبى دواد وعدى بن زيد: وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية”<sup>(٢)</sup>. وقال أبو محمد عبد الله بن قتيبة (٨٢٨ - ٨٨٩): “أتى (عدى بن زيد) بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب... وعلماؤنا لا يرون شعره حجة على الكتاب”<sup>(٣)</sup>. وعلى الرغم من شيوع أمثال هذه الأقوال بين العلماء والنقاد، نقبلها في احتقاس وحذر، لأن أصحاب المعاجم - وعلى رأسهم الخليل بن أحمد<sup>(٤)</sup> - رووا عن الشاعرين وغيرهما من المتهمين بالضعف اللغوي.

وأسرف بعض علماء اللغة فميز بين اللغات - على أساس بيئتها - وحكم على بعضها بالفصاحة<sup>(٥)</sup>، وبعضها بالضعف وإنكار اللغويين لها وتركها<sup>(٦)</sup>، وبعضها بالرداءة والذم<sup>(٧)</sup>. ووضح الفارابي (أبو إبراهيم إسحاق) (نحو ٩٦١) المقياس البدوي، والقبائل المعترف بها وغير المعترف، توضيحاً كافياً في قوله: “الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي، من

(١) محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، ج ١، ص ٦، ونصار، المعجم العربى: نشأته وتطوره، ج ١، ص ٣٠٥.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى، فى الموشح ٧٣ الشعر والشعراء (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦)، ص ٢٣٠.

(٣) نصار، المعجم العربى: نشأته وتطوره، ج ١، ص ٢٤١.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٠.

(٥) السيوطى، المزهرة فى علوم اللغة وأنواعها، النوع التاسع، ج ١، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٦) المصدر نفسه، النوع العاشر، ج ١، ص ٢١٤ - ٢٢٠.

(٧) المصدر نفسه، النوع الحادى عشر، ج ١، ص ٢٢١ - ٢٢٦.

بين قبائل العرب، هم: قيس وتميم وأسد... ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام - لمجاورتهم أهل مصر والقيط - ولا من قضاة وغسان وإياد - لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية - ولا من تغلب والنمر - فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر - لمجاورتهم للنبط والفرس - ولا من عبد القيس وأزد عمان - لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس - ولا من أهل اليمن - لمخالطتهم للهند والحبشة - ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم - ولا من حاضرة الحجاز - لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم<sup>(١)</sup>. فإذا أغضينا عن التطرف الذى يشوب هذا النص، ويعيب حكمه على بعض القبائل، استنبطنا منه مبدأ قال به علماء اللغة والنحو وتفسكوا به. أعنى ذلك المبدأ الذى ينظر إلى لهجات القبائل العربية نظرة معيارية، تميز بين لهجات سليمة وأخرى رديئة. واللهجات السليمة هى لهجات القبائل التى عاشت فى البادية منعزلة عن المؤثرات الخارجية. واللهجات الرديئة هى لهجات القبائل التى استوطنت بقاعاً بعيدة عن البادية، أو بقاعاً من البادية أو قريبة منها، غير أنها اتصلت بشعوب غير عربية كان لها أثرها فى لهجتها. وما زال هذا المبدأ ملتزماً فى علم النحو العربى إلى اليوم، وإن كان المحدثون من علماء اللغة تحللوا من قبضته المحكمة، وحصلوا على شىء من التحرر منه.

(١) المصدر نفسه، ج ١ ص ٢١١ و ٢١٢، والفارابى، الاقتراح (حيدرآباد الدكن، ١٣٥٩هـ).

## ثانياً: المجال الأدبي

إذا تركنا المجال اللغوي إلى الأدبي، وجدنا ثلاث فئات تتقاسمه وتفتن إلى أثر البيئة، ومنذ عهد بعيد، وإن كان لا يزاحم المجال اللغوي في ذلك. ومن أقدم ما عثرت عليه خبر يبين أن الذوق يختلف من بيئة إلى أخرى. جاء في الحديث النبوي: "من بدا جفا"<sup>(١)</sup> فرق الحديث بين أذواق أبناء البادية وأبناء الحاضرة، ووصف الأولين بالغلظة والخشونة. وعثرت على خبر آخر يتحدث عن الذوق أيضاً. روى أبو الفرج الأصفهاني - صاحب أكبر موسوعة فنية قديمة<sup>(٢)</sup> - عن عبيد الله بن عمر العمري (٧٦٤) - قال: خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام أرفئت (أفحشت) فيه. فأدنيت ناقتي منها، ثم قلت لها: يا أمة الله، ألسنت حاجة؟ أما تخافين الله! فسفرت عن وجهه يبهر الشمس حسناً. ثم قالت: تأمل يا عم، فإنني ممن عناه العرجى بقوله:

أماطت كساء الخبز عن حُر وجهها وأدنت على الخدين بُرداً مهلهلاً  
من اللاء لم يحججن يبيغين حِسْبة ولكن ليقتلن البريء المغفلاً

فقلت لها: فإني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار... وبلغ ذلك سعيد ابن المسيب (٦٣٤ - ٧١٣) أو سلمة بن دينار (٧٥٧) فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء المراق لقال لها: اغزبي، قبحك الله، ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز".

والفئات الثلاث التي نجدتها هي ما يلي:

(١) أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البحوي، ص ٣ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١)، ص ١٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٢٤ ج (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧ - ١٩٧٤)، ج ١، ص ٤٠٣.

## ١- فئة النقاد

أقدم ما عثرت عليه من الأخبار النقدية التي تربط بين الشعراء وبيئاتهم يرجع إلى العصر الأموي. فقد روى<sup>(١)</sup> أن كثيراً قدم على عبد الملك بن مروان فأنشده، والأخطل (٦٤٠ - ٧٠٨) عنده. فسأله عبد الملك: "كيف ترى يا أبا مالك؟ فقال: أرى شعرا حجازيا مقررًا، لو ضغطه برد الشام لاضمحل". ويكشف هذا الخبر أن الأخطل يفرق بين شعراء الحجاز وشعراء العراق والشام، ويفضل الأخيرين على الأولين، وإن كان التفضيل ساذجا لا يعتمد على أساس واضح.

ثم يتضح التأثير عند محمد بن سلام الجمحي (٧٦٧ - ٨٤٦) الذي يعطينا ثلاثة أخبار: أولهما صياغة لما كان يدور بين اللغويين عن عدى بن زيد قال: "عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقته"<sup>(٢)</sup>. فإذا كان اللغويون نظروا إلى سلامة لغة عدى، فإن ابن سلام نظر إلى سهولة ألفاظه وتراكيبه. وإذا كان اللغويون عللوا حكمهم بما حدث في الحيرة من اختلاط بين العرب وغيرهم، فإن ابن سلام علل حكمه بطبيعة الحيرة الريفية التي تختلف عن طبيعة البادية.

ولعل هذا الحكم هو الذي أعان ابن سلام في حكمه التالي، الذي لم يقف فيه عند شاعر واحد، بل اتسع ففرق بين سكان الريف وسكان الصحراء عامة، فجعل الأمر قاعدة عامة، قال: "أهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو"<sup>(٣)</sup>.

ونظر ابن سلام في الخبر الثالث إلى أثر البيئة (وما يجرى فيها) في كثرة الشعر وقلته وفي جودته أيضا، وفرق بين البيئات المختلفة اعتمادا على ذلك،

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ذخائر العرب،

٧ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢)، ٤٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٣) محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، ص ١٠٨ و ١١٠.

قال: "إنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عمان"<sup>(١)</sup>.

وقد التقط ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله) (٨٢٨ - ٨٨٩) تفرقة ابن سلام بين الهداية والريف ووافق عليها وأضاف إليها تفاصيل تكشف عن بعض وجوه التفرقة، فقال: "نازلة الوبر (الصحراء) في الحلول والظمن على خلاف ما عليه نازلة الحفر، لانجتماعهم الكلاً، وانتقالهم من ماء إلى ماء، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان". ورد إلى هذه الحياة الهدوية المتنقلة ما اعتاده الشاعر القديم من بدء قصائدهم "بذكر الديار والدمن والآثار فشكا ويكى، وخاطب الرّبع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها"<sup>(٢)</sup>.

والثقت ابن طباطبا<sup>(٣)</sup> (٩٣٤) إلى استلهام الشاعر العربي القديم لبيدته ووصفه ما فيها من أشياء، واتخاذها مادة ألف منها صورته الفنية، فقال: "أعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأتركه عيائها، ومرت به تجارها، وهم أهل وبر، صحنهم الجوادى، وسقوفهم السماء، فليست تمدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها، وفي كل واحدة منها فى فصول الزمان على اختلافها، من شتاء وربيع وصيف وخريف، من ماء وهواء ونار وجيل، ونبات وحيوان، وجماد، وناطق وصامت، ومتحرك وساكن، وكل متولد من وقت نشوئه وفي حال نموه إلى حال انتهائه. فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أتركه من ذلك عيائها وحسها...". وقد وصل ابن طباطبا إلى

(١) الجمحى، للمصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٢) أبو على الحسن بن على بن رشيق، العمدة فى صناعة الشعر ونقده (بيروت: دار الجليل، ١٩٧١)، ج ١، ص ٢٢٦.

(٣) أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا، عبار الشعر، تحقيق وتعليق طه الحاجرى ومحمد زغلول سلام (القاهرة: للكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦)، ص ١٠.

القمة، فى إبانة أثر البيئة فى المضمون الشعرى، حيث أعلن أن "الهرب أودعت أشعارها... ما ... أدركه عيانها، ومرت به تجاربهما" بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فنفى أن يكونوا أتوا بشيء من خارج بيئتهم: "فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها".

والتفت على بن عبد العزيز الجرجاني<sup>(١)</sup> (٩٠٣ - ٩٧٦) إلى أثر البيئة فى الأذواق، ومن ثم فى السلوك واللغة، وما أدى إليه ذلك من آثار فى الشعر، قال: "وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوَعَّر منطلق غيره. وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق. فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماعة الكلام بقدر دماثة الخلقة. وأنت تجد ذلك ظاهراً فى أهل عصرك وأبناء زمانك. وترى الجافى الجلف منهم كز الألفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته، وفى جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك، ولأجله قال النبى ﷺ "من بدا جفا" ولذلك تجد شعر عدى - وهو جاهلى - أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤية - وهما آملان - ملازمة عدى الحاضرة، وإبطانه الريف، ويُعده عن جلالة البدو وجفاء الأعراب... فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا الأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذى أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا.. وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق. فانتقلت العادة وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، واحتذوا بشعرهم هذا المثال. وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ."

اتخذ الجرجاني مما قيل عن عدى بن زيد عمادا، أضاف إليه حديثا نبويا يؤيده، ثم وسع الصورة بحيث شملت البادية والحاضرة وأثر كل منهما فى

(١) الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ١٧ - ١٩.

أذواق الناس وأخلاقهم وسلوكهم وطريقة نطقهم، ثم فى ألفاظ أشعارهم وأساليبهم. ولم يقف بالأثر عند البيئة الجغرافية، بل أضاف البيئة الثقافية، وخاصة تلك التى أتى بها الإسلام. ووازن بين عدد من الشعراء للبرهنة على صحة ما أدلى به من أحكام، بل اختار شعراء جاهليين وإسلاميين لهذه الموازنة، ليبين أن أثر المكان أقوى من أثر الزمان.

وإذا انتقلنا إلى ابن رشيق القيروانى (أبى على الحسن) <sup>(١)</sup> (١٠٠٠ - ١٠٧١) لم نجدّه يأتى بجديد وإنما يضيف تفاصيل للشرح والإيضاح، ويعود إلى الاقتصار على مطالع القصائد بعد أن كان الحديث قد تعداها إلى عامة الشعر. قال: "وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب، لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول، بحسب ما فى الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء.. ومقاصد الناس تختلف: فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال، وتوقع البين، والإشفاق منه، وصفة الطلول والحمول، والتشوق بحنين الإبل ولع البروق ومر النسيم، وذكر المياه التى يلتقون عليها، والرياض التى يحلون بها من حُزَامى وأقحوان وبهار وحنّوة وظيان وعرار وما أشبهها من زهر البرية الذى تعرفه العرب، وتنبتة الصحارى والجبال، وما يلوح لهم من النيران من الناحية التى بها أحبابهم.. وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزلهم فى ذكر الصدود والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحراس والأبواب، وفى ذكر الشراب والندامى والورد والنسرين والنيلوفر، وما شاكل ذلك من النواوير البلدية والرياحين البستانية، وفى تشبيه التفاح والتحية به، ودرس الكتب، وما شاكل ذلك مما هم به مفردون".

أخذ ابن رشيق أقوال ابن قتيبة، وأعاد صياغتها، وأضاف إليها ما رصده من أحوال العشاق فى الحواضر مما خالفوا فيه عشاق البادية.

(١) ابن رشيق، العمدة فى صناعة الشعر ونقده، ج ١، ص ٢٢٥.

وأجمال القول أن أول ناقد أشار إلى أثر البيئة في الشعر كان من الشعراء،  
ثم توالى حديث النقاد بعده.

وقد بدا ذلك الحديث ساذحا مبهما عند الأخطل غير أنه اتضح عند ابن  
سلام الذى أفاد من أحكام اللغويين، وإن اتسع فيها واتجه بها وجهة فنية.

وكان أول ما فطن إليه النقاد من آثار البيئة ما اتصل بكثرة الشعر وقلته  
ولغته ثم ربط ابن قتيبة (أو من نقل عنه) بين البيئة ومطالع القصائد. ثم وصل  
التنبية إلى قمته عند ابن طباطبا والجرجاني الذين كشفوا أثر البيئة في المضمون  
والشكل الشعريين، بل أرجع أولهما كل الظواهر الشعرية إلى البيئة.

ثم تنازل النقد عن هذه القمة إلى أقوال تردد الأقوال السابقة نصا، أو تعيد  
صياغتها، فإن أضافت إليها، فإنما هي تفاصيل فقط.

## ٢- فئة الشعراء

أقدم خبر عثرت عليه يدل على تنبه الشعراء لتأثير البيئة في عملية الإبداع  
الفنى، أن كثير بن عبد الرحمن، المعروف بكثير عزة (٧٢٣) سئل ذات يوم<sup>(١)</sup>  
يا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ فقال: أطوف فى الرباع  
المخيلة (الجميلة) والرياض المعشبة، فيسهل على أرضه، ويسرع إلى أحسنه".  
وإذن فكثير يزعم أن هناك بيئات تسد مسالك الشعر أمام الشاعر، وهناك بيئات  
تدفعه إلى النظم، وأن البيئة التى يتوافر لها الجمال الطبيعى تدخل بالشاعر فى  
حال انفعالية تصل به إلى عملية الإبداع، تستدعى ما أحب من الشعر. بل يمتاز  
الشعر الآتى فى مثل هذه البيئة بجمال فنى قد لا يتوافر فى إنتاج غيرها من  
البيئات.

وربما نجد فيما روى عن معاصره الفرزدق (٧٢٨) مثل هذا التنبه، وإن لم  
يصرح الشاعر به أو يومئ إليه؛ قال إبراهيم بن محمد الزهرى<sup>(٢)</sup>: "قدم

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٩.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٩، ص ٣٣٧.

الفرزدق المدينة فى إمارة أبان بن عثمان (٦٩٤ - ٧٠١).. فإنى والفرزدق وكثيرا جلوس فى المسجد نتناشد الأشعار، إذ طلع علينا غلام شخت (هزىل) آدم (أسمر) فى ثوبين ممصّرين (أى مصبوغين بصفرة غير شديدة) ثم قصد نحونا حتى جاء إلينا فلم يسلم. فقال: أَيْكم الفرزدق؟... فقال له الفرزدق: ومن أنت لا أم لك؟ قال: رجل من بنى الأنصار ثم من بنى النجار ثم أنا ابن أبى بكر بن حزم، بلغنى أنك تزعم أنك أشعر العرب وتزعم مضر ذلك لك، وقد قال صاحبنا حسان (بن ثابت) شعرا فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك سنة، فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب والا فأنت كذاب منتحل. ثم أنشده قول حسان:

لنا الجففات الغري يلمعن بالضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما  
متى ما تزرنا من معدّ عصابة وغسان نمنع حوضنا أن يهدما

فأنشده القصيدة إلى آخرها وقال له: إنى قد أجلتك فيها حولاً. ثم انصرف وانصرف الفرزدق مغضبا يسحب رداءه ما يدرى أى طريق يسلك حتى خرج من المسجد... فلم نزل فى حديث الفرزدق والأنصارى بقية يومنا. حتى إذا كان الغد، خرجت من منزلى إلى مجلسى الذى كنت فيه بالأمس، وأتانى كثير فجلس معى، فإننا لتتذاكر الفرزدق ونقول: ليت شعرى ما فعل، إذ طلع علينا فى حلة أفواف (قطن) يمانية موشاة، له غدירתان، حتى جلس فى مجلسه بالأمس، ثم قال: ما فعل الأنصارى؟... فلنا منه وشتمناه. فقال: قاتله الله! ما رُميت بمثله ولا سمعت بمثل شعره! فارقتهما فأتيت منزلى فأقبلت أصعد وأصوب فى كل فن من الشعر، فلكأنى مفحم أو لم أقل قط شعرا حتى نادى المنادى بالفجر، فرحلت ناقتى ثم أخذت بزمامها فقدها حتى أتيت ذبابا (جبل بالمدينة)... فجاش صدرى كما يجيش المرجل، ثم علقت ناقتى وتوسدت ذراعها، فما قمت حتى قلت مئة وثلاثة عشر بيتا.

وقد أنتجت أمثال قول كثير وفعل الفرزدق مقولة اشتهرت بين الشعراء، وسارت مسار الأقوال الشاردة، تعلن: "ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى، والشرف (المرتفع) العالى، والمكان الخضر الخالى"<sup>(١)</sup>.

ومهما تكن قيمة الأقوال السابقة، فإنها لا تقارن بما وقع فى القرن التالى، ويمكن وصفه بالثورة على العرف الشعرى القديم. فقد تغيرت بيئات الشعراء تغيرا كبيرا، فصاروا أبناء مدن بعد أن كانوا أبناء بادية، بل صاروا أبناء مدن غاية فى التحضر فقدت أكثر صلاتها بالبادية مثل الكوفة والبصرة وبغداد، ففقد هؤلاء الشعراء معرفتهم بالبادية، وكان من الطبيعى أن يفقدوا صلتهم العاطفية بها، فيفقدوا إعجابهم بها وإحساسهم بمواطن الجمال فيها. بل شامت صورتها عند بعضهم فصارت "خرابا يبابا، يسكنها قوم من الأجلاف الغلاظ، يعيشون فى خيام مصنوعة من جلود الأنعام صناعة فطرية... لا يتركون حيوانا من حيوان الصحراء إلا أكلوه حتى الحيات"<sup>(٢)</sup>. قال على بن الخليل فيمن تشبهه بالأعراب<sup>(٣)</sup>.

أتيناه بشبوط ترى فى ظهره حدبا  
فقال: أما لبيحك من طعام يذهب السفا  
فصد لأخيك يربوعا وضبا واترك اللعبا  
فرشت له قريح المسك والنسرين والغربا  
فأمسك أنفه عنها وقام موليا هربا  
يشم الشيخ والقيصوم كى يستوجب النسبا

وقال أيضا:

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٩.

(٢) البيهقي، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى، ص ٤٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

فلو تراه صارفاً أنفه من ريح خنيري ونسرين  
لقلت: جلف بنى دارم حن إلى الشيخ بيبيرين  
دهموص رمل زل عن صخره يعاف أرواح البساتين  
تنبو عن الناعم أعطافه والخز والسفجاب واللين

وطبيعي أن يحس بعض الشعراء أن بيئتهم (وما يمارسون فيها من حياة) تختلف كل الاختلاف عن بيئة الشعراء السابقين، وأن يعدلوا عن تقليد هؤلاء الشعراء في إنتاجهم، لأنهم يصورون حياة غير حياتهم، وأن يأخذوا في تصوير واقعهم الحي.

وكان العرف الشعري اتخذ من القصيدة الجاهلية نموذجاً أوجب على الشاعر الفحل أن يحتذيه، ولم يقتصر على هذا بل حدد عناصر تلك القصيدة النموذجية لأنها لم تكن المثال الأوحده، وعنى عناية خاصة بمطلعها. ويمكن معرفة هذا النموذج من قول ابن قتيبة<sup>(١)</sup> (٨٢٨ - ٨٨٩) الذي ربط ربطاً وثيقاً بينه وبين البيئة التي ظهر فيها: "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرئع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلاً وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصباة والشوق، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بايجاب الحقوق، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنشاء الراحلة والبيير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ونعمة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكارة في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزه للسماع، وفضله على الأشباه... فالشاعر المجيد من سلك

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٣ - ٧٧.

هذه الأساليب... وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكى عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافى، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة والعرارة".

وقد قنع بعض الشعراء بالخروج على هذا العرف، واختاروا عناصر أخرى غير الأطلال لمطالع قصائدهم. وقد وقع هذا منذ عهد مبكر يرجع إلى منتصف العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة وأتباعه. ولكنه لم يثر الدهشة ولا لفت الأنظار لأنه لم يعلن تحديه للقديم، ولأن بعض القديم نفسه لم يبدأ بالأطلال. فافتتح أبان بن عبد الحميد اللاحقى (٨١٥) مدحته للفضل بن يحيى (٧٦٥) - (٨٠٩) بالغزل والخمر، قال<sup>(١)</sup> :

نعمنا ليلة الإنعا م حيث العرج ينعرج  
 بناعمة كمثل الببد رشاب دلالها غنج  
 تغادينى المعازف عو دها والصنج والرنج  
 بسكفى شادن لم أذ سه فى طرفه غنج  
 له نغمات قيانات بها الأرواح تختلج  
 أحب من الغناء مليح ما إيقاعه الهزج  
 أمرٌ سلافة صرفا كان صبيبهها ودج  
 كذاك العيش إذ قلبى رضى باله بلج

وكذا فعل أشجع السلمى (نحو ٨١١) ومنصور النمري (نحو ٨٠٥) وغيرهما.

(١) محمد بن يحيى الصولى، أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق (مطبعة الصاوى، ١٩٣٤)، ص

وافتح عبد الله بن المعتز (٨٦١ - ٩٠٩) إحدى قصائده بالوقوف على شجرة نيق، لأنها الشجرة التي كان يجتمع مع صاحبه تحت ظلها عند ماء يجاورها، قال<sup>(١)</sup> :

أيا سدرة الوادى على المشرع العذب سقاك حيا حيا<sup>١</sup> الثرى ميت<sup>٢</sup> الجذب  
كذبت<sup>٣</sup> الهوى إن لم أقف أشتكى الهوى إليك وإن طال الطريق على صحبى  
وقفت بها والصبح ينتهب الدجى بأضوائه، والنجم يركض فى الغرب  
أصانع أطراف الدموع، فمقلتى موقرة بالدموع، غربا على غرب  
وهل هى إلا حاجة قضيت لنا ولوم تحملناه فى طاعة الحب  
الأمر المهم أنهم لم يلتزموا رسما معيننا لم يتعدوه، وإنما حرروا أنفسهم  
واستغلوا مطالع قصائدهم فى التعبير الحر عن أنفسهم وما عن لهم من أفكار.  
قال أبو نواس فى مطلع مدحته للعباس بن الفضل بن الربيع<sup>(٤)</sup> :

الحمد لله ليس لى نشب فخف<sup>١</sup> ظهري وقل<sup>٢</sup> زوارى  
وأحسن<sup>٣</sup>ت نفى التعزى عن شىء<sup>٤</sup> تولى ومئن<sup>٥</sup> أوطارى  
فلس<sup>٦</sup>ت أخشى نفسى على طمع أخاف<sup>٧</sup> فيه دريكة العار  
من نظرت<sup>٨</sup> عينه إلى فقد أحاط<sup>٩</sup> علما بما حوت دارى  
وصرح أبو نواس (٧٦٣ - ٨١٤) فى إحدى قصائده بجهله بالصحراء وأنه  
يصف بيئته التى تقع عيناه عليها فقال<sup>(٥)</sup> :

(١) أبو العباس عبد الله بن المعتز، ديوان عبد الله بن المعتز، تفسير محيى الدين الخياط (بيروت: مطبعة الإقبال، {د. ت.}، ص ٨٢.

(٢) أبو على الحسن بن هانى أبو نواس، ديوان أبي نواس (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨)، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٠، والبهيق، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى، ص ٤٥٢.

مالى بدار خلّت من أهلها شغل      ولا شجاني لها شخص ولا ظلُّ  
 ولا رسوم، ولا أبكى لمنزلة      للأهل عنها وللجيران منقل  
 بيدااء مقفورة يوما فأنعتها      ولا سرى بى فأحكيه بها جمل  
 ولا شتوت بها عاما فادركنى      فيها المصيف فلى عن ذاك مرتحل  
 ولا شددت بها من خيمة طنبا      جارى بها الضب والحرباء والورل  
 لا الحزن منى برأى العين أعرفه      وليس يعرفنى سهل ولا جبل  
 لا أنعت الروض إلا ما رأيت به      قصرا منيفا عليه النخل مشتمل

ثم يمضى فى وصف النخل. والحق أن أبا نواس كان على وعى عميق  
 باختلاف البيئتين القديمة والحاضرة، وبوجوب استلهام الشعراء بيئتهم الراهنة.  
 قيل إنه عندما دخل ليهنى الأمين (٨٠٩ - ٨١٣) بأول قصائده فيه، استأذن  
 فى حديث يمهد لقصيدته قال فيه: "يا أمير المؤمنين، إن شعراء الملوك قبلى  
 شبيبوا بالمدن والحجر، والشاء والبقر، والصوف والوبر، فغلظت طباعهم،  
 وانبتغلت معانيهم، ولا بصر لهم بامتياح خلفائنا"<sup>(١)</sup> ثم أنشده قصيدته التى  
 افتتحها بالخمير:

ألا دارها بالماء حتى تليئها      فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

وعندما وجد الشاعر الخليفة لا يعترض على شعره، غالى فى موقفه، وانتقل  
 إلى الدعوة العلنية الدؤوب إلى ترك الوقوف على الأطلال، والاستعاضة عنها  
 بالخمير أو غيرها من موضوعات الحاضرة. حقا لم يكن أبو نواس أول من رفع  
 لواء هذه الدعوة ولا الوحيد فيها. بل سبقه إلى أطراف منها بعض الشعراء. فقد  
 عجب بشار بن برد (٧١٤ - ٧٨٤) ممن يقف فيبكي على الأطلال فقال<sup>(٢)</sup>:

(١) أبو نواس، ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ، حققه وضبطه وشرحه عبد المجيد الغزالي  
 (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٣)، ص ٦٩٨.

(٢) بشار بن برد، ديوان بشار بن برد (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦)، ج ٤،  
 ص ١٥٢.

كيف يبكى لمحبس فى طول من سيبكى لحبس يوم طويل؟  
 إن فى الحشر والحساب لشغلا عن وقوف بكل رسم محيل  
 وفضل صديق لمطيع بن إياس (٧٨٣) موقف عاشقين على الصحارى وما  
 فيها من مواضع وجبال وطيور، قال مطيع<sup>(١)</sup> " جلست أنا ويحيى بن زياد (نحو  
 ٧٧٦) إلى فتى من أهل الكوفة كان ينسب إلى الصبوة، ويكتم ذلك. فقاوضناه  
 وأخذنا فى أشعار العرب، ووصفها البيد وما أشبه ذلك، فقال:  
 لأحسن من بيدٍ يحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا  
 تلاحظ عيني عاشقين، كلاهما له مقلّة فى وجه صاحبه ترعى  
 وسخر سلم الحاسر (٨٠٢) فى مدحته للمهدى (٧٧٥ - ٧٨٥) ممن يصف  
 الصحراء والرحلة فيها، قال<sup>(٢)</sup>:

حى المنابر بالسلا م على وداع أو لمام؟  
 لم يبق منك ومنهم غير الجلود على العظام  
 ولقد سكرت من الهوى سكر القوى من المدام  
 فالقلب مضطرب الحشا والعين نافرة المنام  
 فإذا عزمت فامض هممك بين محمود وذام  
 ودع النوافخ فى البورى يسبحن فى بحر الظلام  
 ودعا عبد الله بن أبى أمية<sup>(٣)</sup> دعوة صريحة إلى إهمال الوقوف على الأطلال  
 فى عبارة كأنها صادرة من أبى نواس، قال:

- (١) أبو العباس عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ذخائر العرب،  
 ٢٠ (القاهرة: دار المعارف، {د. ت.}، ص ١٠٢.  
 (٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢.  
 (٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

دع دارسات الطلول وكل ربع محبيل  
ولا تصف دار سلمى ذرها لكل جهول  
ولا تقل : آل ليلى قد آذنوا برحيل

ولم ينفرد أبو نواس بحملته على الأطلال بل شاركه فيها كثير من معاصريه ،  
الذين أغرموا بخاصة بالخمريات ، من أمثال الحسين بن الضحاك المعروف  
بالخليع (٧٧٩ - ٨٦٤) الذي هاجم البادية ، وما تنبته من زروع ، وما تفرضه على  
سكانها من شرب لبن الإبل والنعاج ولبس ملابس خشنة قديمة ، وركوب للخيل ،  
ووصف كل ما في البادية بالأقذاء ، وكل من فيها بالأجلاف ، قال<sup>(١)</sup> :

بُدلت من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك دَر الإبل والشاء  
ما بين بطن بثيران حللت به إلى الفراديس إلا شوب أقذاء  
فعدُّ همك عن طَرْف يمارسه جلف تُلْفَع طمرا بين أحناء

ولذلك يعد المؤرخون هذه الحملة ثورة عامة أعلنها المجددون في مطلع  
العصر العباسي للموامة بين شعرهم وبيئتهم الحضرية الحديثة وما تمتلىء به  
من تيارات ثقافية جديدة. ويعد المؤرخون أبان نواس زعيم هذه الثورة لإلحاحه  
في الإعلان والدفاع عنها ، ولاتساعه فيها حتى شملت الأعراف البدوية من  
وقوف على الأطلال ، وبكاء عندها ، وحديث معها ، وتغزل بأسماء عربية معينة ،  
ووصف للرحلة في الصحارى المجذبة الفسيحة لبلوغ المدوح ، وتصوير لحياة  
أهل هذه الصحارى وما عرفوه من حيوان ونبات. قال في إحدى قصائده<sup>(٢)</sup> :

أئسن رسم الديار ثم الطلولا وارفض الربع دارسا ومحبلا  
هل رأيت الديار ردت جوابا وأجابت لذي السؤال سؤولا

(١) الحسين بن الضحاك، أشعار الخليج (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٠)، ص ١٩.

(٢) أبو نواس، ديوان أبو نواس الحسن بن هانئ، تحقيق الغزالي، ص ٦٧٣.

واشربئها كأنها عين ديك يطرد الهم طعمها والغليلا  
وقال<sup>(١)</sup> :

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبكي عهد جدتها الخطوب  
وخلُّ لراكب الوجفاء أرضا تخب بها النجيبية والنجيب  
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ولا عيشا فعيشهم جديب  
بأرض نيئها عُشر وطلع وأكثر صيذا ضيع وذيب  
إذا راب الحليب فبُل عليه ولا تحرج فما فى ذاك حُوب  
فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساقٍ أريب

من أجل ذلك لا نعجب عندما نجد من الأدباء من اتهمه بالشعوبية، أى كراهية العرب والتعصب عليهم مما لا أصله الفارسي. ولكن غيرهم اعتدل فاكتمى بالقول بأنه "كان شعوبى اللسان"<sup>(٢)</sup> وبرأه من شعوبية القلب.

والأمر الغريب فى هذه الدعوة أنها - على الرغم من اعتمادها على واقع البيئات الجديدة - لم تنل النجاح المقدر لها. واستمر الشعراء بل المجددون منهم أمثال أبى تمام (٨٠٦ - ٨٤٦) والمتنبى (٩١٥ - ٩٦٥) والمعرى (٩٧٣ - ١٠٥٧) فى الأجيال التالية يلتزمون بالعرف العربى القديم فى تصوير الأطلال والصحراء. واضطر أبو نواس نفسه إلى التنازل عن دعوته، والعودة إلى العرف القديم فى بعض مدحه، إرضاء للممدوحين. ويكشف لنا ذلك أن الخلفاء وكبار القوم وعلماء اللغة فى بغداد احتضنوا العرف القديم، وقاوموا كل مساس به، وفرضوه على الشعراء فرضاً. ويكشف أيضاً أن البيئة الثقافية غلبت البيئة الجغرافية، ودفعت الشعراء إلى الاحتذاء، أو التحديد فى داخل الإطار القديم.

(١) المصدر نفسه، ص ١١.

(٢) ابن رشيق، العمدة فى صناعة الشعر ونقده، ج ١، ص ٢٣٢.

والغريب أيضا أن دعوة أبى نواس صارت دعوة تقليدية ردها شعراء الخمر بعد تظرفاً منهم، دون أن تكون منهم ثورة أو محاولة للثورة، ودون أن يكون ذلك منهم تلبية لشعور بيئى. يقول ابن وكيع التنيسى (١٠٠٣) مثلاً فى إحدى خمرياتة<sup>(١)</sup>:

ذا العيش لا نعت المهامة والفلا      وسؤال رسم الدار والأحجار

لا فرج الرحمن كربة جامل      يبكى على الأطلال والآثار

وورد إلينا خبر من القرن العاشر يدل أن الشاعر العربى اتسعت فطنته بالأثر البيئى، فتنبه إلى أن البيئة الضيقة الخاصة تفرض من الآثار مثل ما تفرض البيئة العامة الواسعة. قيل<sup>(٢)</sup>: إن أحد الأشخاص سأل ابن الرومى (٨٣٦ - ٨٩٦) لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقال له: أنشدنى شيئاً من شعره أعجز عن مثله. فأنشده وصف ابن المعتز للهِلال:

فانظر إليه كزورق من فضة      قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال ابن الرومى: زدتنى. فأنشده:

كأن آذريونها      والشمس فيها كاليه

مدامن من ذهب      فيها بقايا غاليه

فصاح ابن الرومى: "واغوثةا، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذلك إنما يصف ماعون بيته".

(١) حسين نصار، محقق، ابن وكيع التنيسى شاعر الزهر والخمر (القاهرة: مكتبة مصر، {د. ت}، ص ٦٠.

(٢) يوسف بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، وجمال محمد محرز وجمال الدين الشيبان، ٦١ ج (القاهرة د: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢)، ج ٣، ص ٩٦.

ومجمل القول إن الشعراء خضعوا للآثار التي تفرضها كل بيئة وما يجرى فيها من تيارات ثقافية متعيرة. عن وعى من بعضهم، وعن غير وعى من أكثرهم. ولذلك اختلفت صورة ما أصدره من شعر فى الأقطار العربية المتعددة، والعصور المتعاقبة.

ولم يقف الأمر بهم عند هذا بل كان منهم من له حس أرقّ وفطنة أثقّب، فتنبهوا إلى أثر البيئة فى المجالات الشعرية المتعددة. وكشف أقدم الأخبار التى عثرنا عليها من أن أقدم تنبه كان فى مجال عملية الإبداع، عونا لها أو إعاقته.

ثم فطن الشعراء إلى ما تخلفه البيئة من آثار فى شكل القصيدة ومضمونها، بل إلى عناصر جزئية فى المضمون. وقد أثار هذا التنبه أول ثورة عامة على العرف العربى القديم فى بناء القصيدة.

### ٣- مؤرخو الأدب

أولع العرب بالأخبار التاريخية منذ جاهليتهم، فتداولت كل قبيلة قصص تاريخها فى أسماها، وحافظت عليها حفاظها على كيانها. ولذلك لم يعجب العلماء عندما وجدوا العرب يبادرون إلى التأليف التاريخى منذ عصر مبكر كل التبكير بعد الإسلام، ووجدوهم يبتكرون من وجوه التأليف، التاريخى ما لا نجده عند أمة غيرها فى قديمها فيما أعتقد.

وأقدم تاريخ عثرت على أخباره، ويتناول بقعة معينة، هو الكتاب الذى ألفه محمد بن الحسين بن زباله، فى تاريخ المدينة، وفرغ من تأليفه فى تشرين الأول / أكتوبر عام ٨١٤.

والكتاب أو الكتب التالية هى ما ألفه محمد بن عمر الواقدى (٧٤٧ - ٨٢٣) عن فتوح البلدان، أو فتوح الشام ومصر وأرمينية والعجم والعراق وغيرها. ثم توالت الكتب التى اختص كل منها بمنطقة واحدة مثل أخبار مكة لأحمد بن محمد المعروف بابن الأزرق (٨٣٤)، وأخبار البصرة لعمر بن شبة (٧٨٩ - ٨٧٨) وغيرها، أو عمت أكثر من منطقة مثل فتوح مصر والمغرب وأخبارهما

لعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (٨٧١)، وفتوح السيلدان لأحمد بن يحيى البلاذري (٨٩٢)، وغيرهما من الكتب التي قسمت ما احتوت عليه من فصول على أساس جغرافي. وعلى الرغم من أن هذه الكتب لا تمت إلى التاريخ الأدبي، فلا أشك أنها ساهمت في لفت الأنظار إلى الأساس الجغرافي، وأدخلته في الإطار الثقافي للإنسان العربي في القرن التاسع.

وأقدم كتاب في التاريخ الأدبي وصل إلينا هو كتاب طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (٧٦٧ - ٨٤٦). وقد قصر المؤلف كلامه على أربعين شاعرا من الفحول المشهورين في الجاهلية، ومثلهم في الإسلام، وما تقارب ذلك من شعراء ذوى لون خاص.

وكما اختار الجمحي الشعراء على أساس تحكمي، قسمهم إلى طبقات على أساس تحكمي أيضاً. فاعتمد في التقسيم - كما يقول - على تشابه الشعر. ولكنه جعل كل أربعة من الجاهليين - ومن الإسلاميين كذلك - طبقة. وأقام الكتاب كله على هذا النظام. وذلك أمر محال. وقد شعر المؤلف بهذا، فقال ذات مرة، وهو يتحدث عن أوس بن حجر، الذي وضعه في الطبقة الثانية من الجاهليين: "وأوس نظير الأربعة المتقدمين إلا إنا اقتصرنا في الطبقات على أربعة رهط"<sup>(١)</sup>.

وعدل المؤلف عن هذا الأساس في عدد من الشعراء وضعهم بين طبقات الجاهليين وطبقات الإسلاميين. حقا جعلهم طبقات، غير أنه خصص واحدة لأصحاب المراثي، وأخرى لشعراء القرى العربية، وعنى بها المدينة ومكة والطائف والبحرين واليمامة، وطبقة ثالثة لليهود.

ويبين هذا أن ابن سلام راعى في تقسيمه الشعراء الذين تناولهم في كتابه الأسس التالية:

(١) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص ٨١.

١ - لون الشعر، فجعل لأصحاب الرثاء طبقة، وللرجاز الطبقة التاسعة من الإسلاميين.

٢ - جودة الشعر وكثرته، فقدم الطبقات التي تتحلى بهاتين الخاصتين، وأخر التي تفتقر إلى إحداهما.

٣ - جنس الشاعر، فخص يهود المدينة بطبقة.

٤ - بيئة الشاعر، حين جمع شعراء القرى معاً، وتكلم عن أهل كل قرية منها منفردين، وحين أفرد الطبقة السادسة من الإسلاميين لأربعة شعراء من الحجاز.

وكان ذلك أول التفات إلى البيئة في كتب التاريخ الأدبي.

ويبدو أن دعبل بن علي الخزاعي (٧٦٥ - ٨٦٠) راعى الأساس البيئي فيما كتب عن الشعراء العباسيين، إذ يقال إنه ألف كتاباً في شعراء بغداد، وآخر في شعراء البصرة، وثالثاً في شعراء خراسان. وسواء أكانت هذه الكتب أجزاء من كتابه المعروف طبقات الشعراء - كما يرجح د. محمد زغلول سلام<sup>(١)</sup> - أم كانت كتباً مستقلة، فإن دلالتها لا تتغير، وتؤكد إقامة حديثه عن هؤلاء الشعراء على أساس جغرافي واضح.

ولم يصل إلينا الكتاب التالي، وهو البارع لهارون بن علي بن يحيى المنجم (٩١٠). وقد أعطى ابن خلكان هذا الكتاب وصفين متناقضين، فأوقعنا في الحيرة فقد قال في ترجمته للعماد الأصفهاني<sup>(٢)</sup>: "صنف التصانيف الفائقة، من ذلك كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" جعله ذيلاً على "زينة دمية الدهر" تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري، والحظيري جعل كتابه

(١) سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، ص ١١٦.

(٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج ٦ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ - ١٩٤٩)، ج ٤، ص ٢٣٥.

ذيلاً على "دمية القصر وعصرة أهل العصر" للباخرزى، والباخرزى جعل كتابه ذيلاً على "يتيمة الدهر" للثعالبي... والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب "البارع" لهارون بن علي المنجم". وعاد إلى تأكيد هذا القول في ترجمته لهارون فقال<sup>(١)</sup>: وهذا الكتاب هو الذي ذكرته في ترجمة العماد الكاتب الأصبهاني، وقلت: إن كتاب الخريدة، وكتاب الحظيري والباخرزى والثعالبي، فروع عليه، وهو الأصل الذي نسجوا على منواله" وقبل هذا القول كل من كتب عن البارع، أو يتيمة الدهر للثعالبي، أو منهج الثعالبي في تأليفها. ولما كانت كل الكتب التي ذكرها ابن خلكان تعتمد على أساس جغرافي في التقسيم كان لنا الحق أن نعتقد أن ابن المنجم اعتمد على هذا الأساس، بل كان أول مؤرخ أدبي قسم كتابه كله على أساس جغرافي.

ولكن هذا الاستنتاج لا يتفق مع وصف ابن خلكان نفسه للبارع أيضاً، في قوله: "افتتحه بذكر بشار بن برد، وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح"<sup>(٢)</sup> ذلك الوصف الذي يقارب وصف كتاب الباهر الذي بدأ تأليفه أخوه يحيى بن علي (٨٥٥ - ٩١٢) وأتمه ولده أحمد، ووصف طبقات ابن المعتز. وقد صرح ابن المعتز في مقدمة كتابه طبقات الشعراء بأنه تابع فيه ابن المنجم في كتابه طبقات الشعراء<sup>(٣)</sup> الذي قطع محمد بهجة الأثرى أنه أراد به البارع<sup>(٤)</sup>. فإذا صح ذلك، وجب إخراج البارع من هذه المجموعة، فلا أساس جغرافياً في كتاب ابن المعتز. ويؤكد هذا أن كتب هذه المجموعة صرحت أنها تتبع الثعالبي ومن بعده من المؤلفين، ولم يذكر أحد منها ابن المنجم.

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٧.

(٣) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ١٨، وفيه ابن نجيم، غير أن الأثرى رأى أنه محرف عن ابن المنجم.

(٤) عماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقي، تحقيق محمد بهجة الأثرى وجميل سعيد (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، د. ت)، "المقدمة" ص ٨٤.

ويلف الغموض أحد الكتب المنسوبة إلى محمد بن يحيى الصولي (٩٤٦)، فقد سمته بعض المصادر كتاب شعراء مصر، وبعضها شعراء مضر<sup>(١)</sup>. فإذا صح العنوان الأول كان أول كتاب يتناول الشعراء المصريين بالحديث، وكان الأساس الجغرافي واضحاً فيه.

ونبرز إلى الضياء مع كتاب عبد الملك بن محمد الثعالبي (٩٦١ - ١٠٣٧) المسمى يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. فقد رأى العالم الإسلامي يستظل بثلاث خلافت متخاصمة ومتنافسة: عباسية سنية في المشرق، وفاطمية شيعية في الشام ومصر والمغرب، وأموية سنية في الأندلس. ورأى الشعراء الفحول يظهرون أو ظهرُوا في كل واحدة من هذه الخلافت، ولا يقتصر الأمر على بغداد أو العراق. بل رأى الشعر العربي ينزوي عن جزء من بلاد فارس تهيم عليه الدولة السامانية، ويسلمه إلى شعر فارسي اللغة، أخذ يقوى شيئاً فشيئاً إلى أن أظهر أول شعرائه الكبار في أبي جعفر رودكي (٩٤١).

فاتخذ الثعالبي من التقسيم البيئي أساساً لكتابه. ورتب شعراء عصره الذين ذكرهم في أقسام أربعة:

— القسم الأول في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها من مصر والموصل [والمغرب] ولع من أخبارهم.

— القسم الثاني في محاسن أشعار أهل العراق، وإنشاء الدولة الديلمية من طبقات الأفاضل، وما يتعلق بها من أخبارهم ونواديرهم، وفصوص من فصول المترسلين منهم.

— القسم الثالث في محاسن أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان وطبرستان وأصفهان من وزراء الدولة الديلمية وكتّابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها، وما ينضاف إليها من أخبارهم وغرر ألفاظهم.

(١) محمد بن يحيى الصولي، أخبار البحتری (دمشق: دار الفكر، ١٩٦٤)، ص ٢٦.

- القسم الرابع فى محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر، من إنشاء الدولة السامانية والغزنية، والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق، والمتصرفين على أعمالها، وما يستطرف من أخبارهم، وبخاصة أهل نيسابور والغرباء الطارئين عليها والمقيمين فيها.

ثم قسم كل واحد من هذه الأقسام إلى عشرة أبواب: فكانت أبواب القسم الأول كما يلى:

- الباب الأول فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان..

- الباب الثانى فى ذكر سيف الدولة..

- الباب الثالث فى ذكر أبى فراس...

- الباب الرابع فى ملح شعر آل حمدان وغيرهم من أمراء الشام وقضاتها وكتّابها.

- الباب الخامس فى ذكر أبى الطيب المتنبى...

- الباب السادس فى ذكر النامى والناشى والزاهى...

- الباب السابع فى ذكر أبى الفرج عبد الواحد الببغاء...

- الباب الثامن فى ذكر الخليل الشامى والوأواء الدمشقى وأبى طالب الرقى.

- الباب التاسع فى ملح أهل الشام ومصر والمغرب...

- الباب العشر فى ذكر شعراء الموصل...

وتأتى أبواب القسم الثانى كما يلى:

- الباب الأول فى ذكر ملوك آل بويه...

- الباب الثانى فى ذكر المهلبى الوزير...

- الباب الثالث فى ذكر أبى إسحاق الصابى.

– الباب الرابع فى ذكر ثلاثة من كتاب آل بويه يجرون مجرى الوزراء:  
عبدالعزىز بن يوسف، وعبد الرحمن بن الفضل الشيرازى، وعلى بن القاسم  
القاشانى.

– الباب الخامس فى ذكر شعراء البصرة...

– الباب السادس فى ذكر نفر من شعراء العراق ونواحيها سوى بغداد...

– الباب السابع فى ذكر قوم من شعراء بغداد...

– الباب الثامن فى تفاريق من ملح المقلين من أهل بغداد ونواحيها،  
والطارئين عليها من الآفاق، والمقيمين بها.

– الباب التاسع فيما أخرج من مجموع أشعار أهل العراق وغيرهم من الوزير  
أبى نصر سابور بن أردشير.

– الباب العاشر فى ذكر الشريف أبى الحسن الرضى الموسوى النقيب..

وهذه أبواب القسم الثالث:

– الباب الأول فى ذكر ابن العميد...

– الباب الثانى فى ذكر ابنه أبى الفتح ذى الكفائتين...

– الباب الثالث فى ذكر الصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد...

– الباب الرابع فى ذكر أبى العباس أحمد بن إبراهيم الضبى...

– الباب الخامس فى محاسن أشعار أهل العصر من أصبهان.

– الباب السادس فى ذكر الشعراء الطارئين على حضرة الصاحب [ابن عباد]  
من الآفاق سوى من يقع ذكره منهم فى أهل خراسان وطبرستان، فإن لهم باباً  
منفرداً فى هذا الربع الثالث، وسوى أبى طالب المامونى وأبى بكر الخوارزمى  
وبديع الزمان أبى الفضل الهمدانى، فإن لذكر كل منهم مكاناً فى الربع الرابع.

– الباب السابع فى ذكر سائر شعراء الجبل، والطارئين عليه من العراق وغيرها...

– الباب الثامن فى ذكر... أهل فارس والأهواز، سوى من تقدم ذكرهم فى ساكنى العراق.. وسوى من يتأخر ذكرهم فى الطارئين على خراسان.

– الباب التاسع : ذكر... أهل جرجان وطبرستان.

– الباب العاشر فى ذكر الأمير السيد شمس المعالى قابوس بن وشمكير..

وهذه أبواب القسم الرابع :

– الباب الأول فى إيراد محاسن وطرف من أخبار وأشعار قوم سبقوا أهل عصرنا هذا قليلا وتقدموهم يسيرا، ومن أبناء الدولة السامانية، وإنشاء الحضرة البخارية وسائر شعراء خراسان، الذين هم - مع قرب العهد - فى حكم أهل العصر.

– الباب الثانى فى ذكر العصريين المقيمين بالحضرة البخارية، والطارئين عليها، والمتصرفين فى أعمالها.

– الباب الثالث فى ذكر المامونى والواثقى...

؛ – الباب الرابع فى غرر فضلاء خوارزم.

– الباب الخامس فى ذكر أبى الفضل الهمذانى.

– الباب السادس فى ذكر أبى الفتح البستى وسائر أهل بست وسجستان...

– الباب السابع فى تفاريق من ملح أهل بلاد خراسان سوى نيسابور..

– الباب الثامن فى ذكر الأمير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى...

– الباب التاسع فى ذكر الطارئين على نيسابور من بلدان شتى على اختلاف مراتبهم، فمنهم من فارقها، ومنهم من استوطنها... سوى من تقدم ذكره منهم فى سائر الأبواب.

– الباب العاشر فى ذكر النيسابوريين الذين تقع محاسن أقوالهم فى هذا

الباب...

يتجلى من هذا العرض للأقسام والأبواب أن الثعالبي أقام أقسام كتابه وأبوابه على أساس جغرافى واضح. فتناول القسم الأول المنطقة من الشام شرقا إلى المغرب غربا، والثانى العراق، والثالث إيران تقريبا، والرابع خراسان وما وراء النهر. وأقام الأبواب على مدينة أو إقليم واحد أحيانا، مثل الموصل والبصرة والعراق وأصبهان والجبل وبخارى وخوارزم وخراسان. وأقامها على أكثر من مدينة مثل الباب التاسع فى القسم الأول، والثامن والتاسع فى القسم الثالث، والسادس فى القسم الرابع. ولكنه فى الباب التاسع من القسم الثالث فصل الحديث عن جرجان عن حديثه عن طبرستان. وأعطى بغداد ثلاثة أبواب، ونيسابور بايين، لاعتبارات مختلفة، ويظهر الأساس الجغرافى فى بابى نيسابور، لأن أحدهما لأبنائها، والثانى للطائرين عليها. وفصل الحديث عن المقيمين عن الحديث عن الطائرين فى داخل الباب التاسع من القسم الثالث أيضا. وقد خلط الطائرين بالمقيمين دون تفرقة بينها فى أبواب أخرى، مثل الأبواب السادس والسابع والثامن من القسم الثالث، والبايين الثانى والتاسع من القسم الرابع. بل فعل ذلك فى أقسام أخرى من دون أن يصرح بذلك فى عناوينها، كما يتجلى فى القسم الأول خصوصا. بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما خصص أحد الأبواب للطائرين على أحد الأشخاص من البيئات المختلفة، مثل الباب التاسع فى القسم الثانى، والسادس فى القسم الثالث. وأعطى بخارى بايين أقامهما على أساس زمنى يتجلى فى البابين الأول والثانى من القسم الرابع. ولما فعل ذلك وغيره، اضطر إلى أن يخرج بعض الشعراء من الأبواب التى يستحقونها جغرافيا، كما فعل فى الباب السادس من القسم الثانى، والبايين السادس والثامن من القسم الثالث، والبايين السابع والتاسع من القسم الرابع.

ولذلك: حين أقول إن الثعالبي أقام كتابه على أساس جغرافى، لا أعنى أنه التزم هذا الأساس التزاما دقيقا سلبا من الشوائب. فنحن نرى المؤلف فى العناوين السابقة يتخذ من الفئات الحاكمة لا البيئات مواد بعض عناوينه؛ ونراه

يجمع فى القسم الواحد بين بينات مختلفة متباعدة، وعلى الرغم من ذلك، لقي كتاب يتيمة الدهر من إعجاب مؤرخى الأدب، ما جعلهم يتخذونه مثالا يحتذونه فى أعمالهم، فيؤرخ كل منهم لأهل عصره، ويقيم الحديث عنهم على أساس جغرافى كما فعل الثعالبى. بل اتبعوه فى حديثه المسجوع الذى لا يقدم معلومات عن أديب ممن تناولهم ولا يقومه تقويما حقيقيا.

وبعد مدة تجمعت لدى الثعالبى معارف تنتمى إلى الكتاب، الذى كان اشتهر بين العلماء، فدونها فى ملحق سار فيه على منهج اليتمية، قال: " ووقع إلى على الأيام ما ينخرط فى سلكه ويصلح للإلحاق به، ولا يسوغ تأخيره عن إخوانه، لا سيما وقد خلا منه مكان قوم من السادة والكبراء، لا مترك لثمار خواطرمهم ووسائل قلائدهم (و) عن لى حذو كتاب لطيف على تمثيله وترتيبه، وإيداعه ما شذ عنه من طرزه وجنسه... وقد قررت عنوان الكتاب تمة اليتمية"<sup>(١)</sup>.

وذكر صاحب كشف الظنون<sup>(٢)</sup> أن لتقى الدين عبد القادر المصرى (١٥٩٦) مختصرا لليتيمة فى مقدار نصفها.

وَأَلْفَ عَلَى بِنِ الْحَسَنِ الْبَاخْرَزِيِّ (١٠٤٤) كِتَابَ دَمِيَةِ الْقَصْرِ وَعَصْرَةَ أَهْلِ الْعَصْرِ وَقِسْمَ مَعَاصِرِهِ الَّذِينَ تَنَاوَلَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ، هِيَ:

- القسم الأول فى محاسن شعراء البدو والحجاز.

- القسم الثانى فى طبقات شعراء الشام وديار بكر وأذربيجان والجزيرة وسائر بلاد المغرب.

- القسم الثالث فى فضلاء العراق.

(١) عبد الملك بن محمد الثعالبى، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر (طهران، ١٣٥٣ هـ)، ج ١، ص ٩.

(٢) مصطفى بن عبد الله حاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، ص ٢٠٤٩ و ٢٠٥٠.

- القسم الرابع فى شعراء اترى والجبال وأصفهان وفارس وكرمان.

- القسم الخامس فى فضلاء جرجان واستراباذ ودهستان وقومس وخوارزم وما وراء النهر.

- القسم السادس فى شعراء خراسان وقهستان وبست وسجستان وغزنة.

- القسم السابع فى طبقة من أئمة الأدب، أورد فيه عشرين رجلا ممن لم يعرفوا بالشعر، لم يراع فى إيرادهم ترتيب ما، وكان كل واحد من هؤلاء الأدباء ينتمى إلى مدينة غير مدن رفاقه. وذكر الباخرزى أنه جعل الأعلام فى داخل كل قسم ثلاث طبقات زمنية<sup>(١)</sup> "منهم السابقون الأولون، ومنهم اللاحقون المخضرمون، ومنهم المحدثون العصريون" غير أن الكتاب لا يفرد كل طبقة بفصل خاص بل لا نجد فصولا فى الكتاب فى غير القسم السادس فقد افتتحه بخمسة من الأدباء عدّهم<sup>(٢)</sup> "نجوما أرضية نظموا من أسلاك القوافى عقودا مرضية... هم فى مواكب الفضل خميس، وما منهم إلا مقدم أو رئيس" كذلك فعل مع أدباء مدينته باخرز<sup>(٣)</sup> "عناية بأرض خرجتنى، وإلى هذه الرتب العالية درجتنى..." كذلك نجد فيه عنوانا لطبقات مدينة بيهق<sup>(٤)</sup>، وآخر لاسفرايين<sup>(٥)</sup>.

وواضح أن الباخرزى تناول الأقاليم التى تناولها الثعالبى، وعالج معاصريه من الشعراء خصوصا، والكتاب عموما كما فعل الثعالبى، وأنهما اشتركا فى بعض التراجم لأن الباخرزى وجد الثعالبى لم يعطها ما تستحق. وعلى الرغم من

(١) على بن الحسن الباخرزى، دمية القصر وعصرة أهل العصر (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٧٠) ج ١، ص ١٢١.

(٢) المصدر نفسه (التحفة الاشرف: مطبعة النعمان، ١٩٧١)، ج ٢، ص ٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١١.

أن الباخرزى قسم الكتاب إلى سبعة أقسام، لم تبراّ الدمية مما لاحظناه فى اليتيمة، ومما سنجدّه فى معظم الكتب التالية.

وانتقل المنهج إلى الأندلس فى القرن الثانى عشر فاتبعه على بن بسام الشنترينى (١١٤٧) فى كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة غير أنه قصره على الأندلس وحدها من الأقطار العربية.

وجعل المؤلف كتابه فى أربعة أقسام:

- الأول منها لأهل قرطبة وما يصاحبها من بلاد متوسطة الأندلس.
- الثانى لأهل الجانب الغربى.
- الثالث لأهل الجانب الشرقى.
- الرابع للطائرتين على الأندلس. واستطرد إلى ثلاثة عشر أديباً من المشاركة المعاصرين الذين لا صلة لهم بالأندلس. وأعلن أنه عقد هذا القسم "اقتداءً بأبى منصور فى تأليفه المشهور، المترجم ببيتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر"<sup>(١)</sup>.

وصرح<sup>(٢)</sup> أنه حشا كل قسم بالحديث عمّن ملكه ثم الكتاب والوزراء ثم أعنيان الشعراء ثم المقلّين منهم، غير أنه لم يفصل بين كل فئة وأخرى لتداخلها، ولذلك كثيراً ما لا يتضح هذا المنهج. وقال العماد الأصفهانى<sup>(٣)</sup> عن القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير (١١٦٧): "صنف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان، وذيل به اليتيمة، وطالعت منه جزءاً، ذكر فيه شعراً.

---

(١) أبو الحسن على بن بسام الشنترينى، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩)، ج ١، القسم الأول، ص ٢٠.  
(٢) المصدر نفسه، ج ١، القسم الأول، ص ٢١.  
(٣) الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقى، و"قسم شعراء مصر"، ج ١، ص ١٠٢.

ويدل هذا القول أن القاضي الرشيد قسم كتابه علي أساس جغرافي، وإن كان الكتاب مفقودا، على الرغم من استفادة من كتبوا عن شعراء مصر منه، مثل العماد في الخريدة، وابن سعيد في المغرب. ويؤكد هذا الاستنتاج قول الأدفوي في الطالع السعيد<sup>(١)</sup>: "ذيل به على اليتيمة".

وعلى الرغم من ذلك، لا أستطيع المواءمة بين هذه الأقوال وقول ياقوت الذي يدل على أنه لم يتناول إلا من عاش في مصر من الشعراء، قال: "كتاب جنان الجنان وروضة الأذهان في أربع مجلدات، يشتمل على شعر شعراء مصر ومن طرأ عليهم"<sup>(٢)</sup>.

وألّف البيهقي (١١٠٦ - ١١٠٧) ذيلا على دمية القصر، جمع فيه أشعار أهل عصره وسماه وشاح الدمية ثم ألّف تكملة له في مجلد خفيف سماه درة الوشاح. وقد اختلف العلماء في اسم البيهقي، فجعله السمعاني في الذيل: أبا الحسن علي بن زيد<sup>(٣)</sup>، وجعله العماد الأصفهاني في الخريدة: شرف الدين أبا الحسن علي بن الحسن. والمرجح هو الأول، فهو المنقول عن خط يده<sup>(٤)</sup>. وقد عثر في خزانة كتب حسين جليبي بمدينة بورسة في تركيا على جزء من الدرّة<sup>(٥)</sup>.

وألّف أبو المعالي سعد بن علي القاسم الأنصاري الحظيري المعروف بدلال الكتب (١١٧٢) زينة الدهر وعصرة أهل العصر، الذي سماه ابن الديبشي زينة

---

(١) جعفر بن ثعلب الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، مراجعة طه الحاجري (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٦)، ص ١٠٠.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ج ٤، ص ٥٥.

(٣) ابن خلكان، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٦٧.

(٤) للصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٧، وياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ١٣، ص ٢١٩.

(٥) جامعة الدول العربية، معهد للخطوط العربية، فهرست المخطوطات المصورة (القاهرة: الجامعة، للمعهد، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٥٤٥.

الدهر فى لطائف شعراء العصر جمع فيه جماعة كثيرة من أهل عصره ومن تقدمهم<sup>(١)</sup>.

وألف عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد القرشى الأصبهاني (١١٢٥ - ١٢٠١) كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لأهل عصره وجعله فى أربعة أقسام:

- القسم الأول لشعراء العراق.

- القسم الثانى لشعراء العجم وفارس وخراسان.

- القسم الثالث لشعراء الشام والموصل وجزيرة بنى ربيعة وديار بكر وما يجاورها من البلاد، والحجاز وتهامة واليمن.

- القسم الرابع لشعراء مصر وأعمالها وجزيرة صقلية والمغرب والأندلس.

وفصل شعراء كل إقليم عن الأقاليم الأخرى التى جمعها تحت قسم واحد. واتبع فى الترجمة نهجا مماثلا لنهج الثعالبي فى اليتيمة.

وبعد مدة من تأليف الخريدة، عثر العماد على جماعة من الشعراء أهملهم أو أخل الحديث عنهم، فاستدركهم فى كتاب فى ثلاثة مجلدات أورد العلماء أسفه فى صور متعددة، فقيل السيل، وقيل السيل والذيل، وقيل السيل على الذيل<sup>(٢)</sup>.

واختصر الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى الخريدة، ويبدو أن خزانة كتب المجمع العلمى العراقى تقتنى مختصرا عن هذا المختصر<sup>(٣)</sup>.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ١٠٩، الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقى، "المقدمة" ج ١، ص ٨٦، وياقوت الحموة، معجم الأدباء ج ١١، ص ١٩٤.

(٢) الأصفهاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٤.

(٣) المصدر نفسه.

واختصرها أيضا على بن محمد المعروف برضائي الرومي (١٦٢٩) في كتاب يسمى عود الشباب أو الشهاب بطرد الذباب، وتوزع نسخه على برلين واسطنبول وفيينا<sup>(١)</sup>.

ثم أخرج على بن موسى المعروف بابن سعيد الأندلسي (١٢١٤ - ١٢٧٥) كتابي المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق. وأراد بالمغرب المنطقة من مصر إلى المغرب والأندلس، وبالمشرق المنطقة من الشام إلى أقصى الوطن العربي شرقا، وعالج كل واحد من هذه المناطق معالجة جغرافية.

فقد قسم منطقة الأندلس إلى غرب وموسطة وشرق، وأفرد لكل قسم منها كتابا فسمى كتاب الغرب كتاب العرس في حلى غرب الأندلس، وسمى كتاب الموسطة كتاب الشفاه اللعس في حلى موسطة الأندلس، وسمى كتاب الشرق كتاب الأناضول في حلى شرق الأندلس.

ولم يقنع بهذا بل قسم كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة تبعا للممالك التي ظهرت فيه، وأعطى كلاً منها كتابا. فكان نصيب غرب الأندلس سبعة كتب هي:

- كتاب الحلة الذهبية في حلى مملكة قرطبة.

- كتاب الذهبية الأصيلية في حلى المملكة الإشبيلية.

- كتاب الفردوس في حلى مملكة بطليوس.

- كتاب الخلب في حلى مملكة شلب.

- كتاب الديباجة في حلى مملكة باجة.

- كتاب الرياض الصونة في حلى مملكة أشبونة.

- كتاب خدع المالقة في حلى مملكة مآلقة.

---

(١) المصدر نفسه.

ثم قسم كل واحدة من هذه المالك تبعا لما تشتمل عليه من كور. فقسم الأول  
مثلا إلى ما يلي:

كتاب الحلة الذهبية فى حلى الكورة القرطبية.

- كتاب الدرة المصونة فى حلى كورة بلكونة.

- كتاب محادثة السير فى حلى كورة القصير.

- كتاب الوشى المصور فى حلى كورة المدور.

- كتاب نيل المراد فى حلى كورة مراد.

- كتاب المزنة فى حلى كورة كزنة.

- كتاب الدر النافق فى حلى كورة غافق.

- كتاب النغمة الأرجة فى حلى كورة استجة.

- كتاب الكواكب الدرية فى حلى كورة القبرية.

- كتاب رقة المحبة فى حلى كورة استبة.

٢- كتاب السوسانة فى حلى كورة اليسانة.

ثم قسم كل كورة تبعا لما تشتمل عليه من مدن مشهورة فاشتملت الكورة  
الأولى من الكور السابقة على الكتب التالية:

- كتاب النغم المطربة فى حلى حضرة قرطبة.

- كتاب الصبيحة الغراء فى حلى حضرة الزهراء.

- كتاب البدائع الباهرة فى حلى حضرة الزاهرة.

- كتاب الوردة فى حلى مدينة شقندة.

- كتبا الجرعى السيفة فى حلى قرية وزغة.

وعد المؤلف كل قاعدة لمملكة عروسا لها، ورأى أن العروس الكاملة الزينة تحتاج إلى منصة وتاج وسلك وحلة وأهداب. أما المنصة فخصصها للمعلومات الجغرافية عن القاعدة والمنشآت. وأفرد التاج للمعلومات التاريخية بمن حكموها، والسلك لتراجم من له شعر من الوزراء والكتاب والقضاة والعلماء والشعراء، والحلة لتراجم من ليس له شعر من أعلام الفئات السابقة، والأهداب للشاحين والزجالين وأصحاب النوادر.

وواضح أن المؤلف أقام جميع أقسام كتابه على أسس جغرافية بيّنة.

وألف شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (١٥٦٩ - ١٦٥٩) كتاب ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا. وقسمه إلى أربعة أقسام:

- القسم الأول في محاسن أهل الشام ونواحيها.

- القسم الثاني في محاسن المصريين من أهل المغرب وما والاها.

- القسم الثالث في مصر وأحوالها.

- القسم الرابع في ذكر الروم (بلاد الأتراك العثمانيين).

وقد خصص فصلا من القسم الثاني لمكة، وأكثر من الحديث عن تجاربه الشخصية في الكتاب، بخاصة في القسم الأخير الذي أضاف فيه عددا من المعارف أيضا.

وألف محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبى (١٦٥١ - ١٦٩٩) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ذيبلا على ريحانة الألبا، وبناه على ثمانية أبواب:

- الأول في محاسن شعراء دمشق ونواحيها.

- الثاني في نوادر أدباء حلب.

- الثالث في نوابغ بلغاء الروم.

- الرابع فى طرائف ظرفاء العراق والبحرفن.

- الخامس فى لطائف لطفاء الهمن.

- السادس فى عجائب نبغاء الحجاز.

- السابع فى غرائب نبهاء مصر.

- الثامن فى تحائف أذكفاء المغرب.

ولم يتبع المؤلف ترتيبها ما فى كتابه، غير أنه خصص فصلا لبعض البفوت العلمفة فى قسم دمشق، مثل بفت حمزة وبفت العماد وبفت المحبف.

ونقد النقاد نفحة الرفحانة وتجمعت لدف مؤلفه معارف جفدفة فشرع فى تفوفن ذفل لها. ولكن الأجل لم فمهله لفنسق ما كتب. وعندما عثر علىه تلمفذه محمد بن محمود السؤالاتف الحنفف العثمانف، عنى به ونظمه وأضاف إلفه. واقتصر السؤالاتف فى التقسفم على ثلاثة فصول هف<sup>(١)</sup>.

- الفصل الأول فى بلغاء دمشق الشام.

- الفصل الثانف فى بلغاء المفدفة المنورة.

١- الفصل الثالث فى نبهاء حلب الشهباء.

وتقتنى دار الكتب المصرفة مخطوطة، محفوظة تحت رقم (١٢٨٠ أدب)، وعنوانها مختارات نفحة الرفحان، ورشحة طلاء الحانة. وتتبع تفوفب النفحة ولكن المخطوطة لم تشر إلى صاحب هذه المختارات ولا زمن تفوفبها.

وألف السفد على صدر الدفن المدفنى بن أحمد نظام الدفن الحسفنف الحسنف المعروف بابن معصوم (١٧٠٧) كتاب سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر ترجم فىه لمعاصرفه، وقسمه كما فلى:

---

(١) محمد أمفن بن فضل الله بن محب الله المحفف، نفحة الرفحانة ورشحة طلاء الحانة، تفقفق عبف الففتاح محمد الحلوف، ٦ ج (القاهرة: عفسى الحف وشركاه، {د. ت.}، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرفة تحت رقم ١٢٧٠ أدب.

- القسم الأول فى محاسن أهل الحرمين الشريفين (مكة والمدينة).

- القسم الثانى فى محاسن أهل الشام ومصر ونواحيهما.

- القسم الثالث فى محاسن أهل اليمن.

- القسم الرابع فى محاسن أهل المعجم والبحرين والعراق.

- القسم الخامس فى محاسن أهل المغرب.

وفصل فى القسم الأول تراجم مكة عن المدينة، غير أنه لم يفعل ذلك فى بقية الأقسام ولم يقصر حديثه على أبناء هذه الأقاليم بل تحدث عن نزلائها أيضاً، وإن أحرهم إلى ختام الفصول.

وألف عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى (١٦٤١ - ١٧٣١) ذيل نفحة الريحانة.

وذكر المرادى فى سلك الدرر<sup>(١)</sup> أن سعيد بن محمد بن أحمد السمان الشافعى الدمشقى (١٧٠٦ - ١٧٥٩): "أراد تأليف كتاب يترجم به شعراء عصره... وارتحل للبلاد بقصد ذلك. وأراد أن يجعله كالنفحة للأمين المحبى، والريحانة للشهاب الخفاجى، والسلافة لابن معصوم المكى. فلم يتم له ذلك، وبقي فى المسودات، وانتثر وتبدد، والمنية عاقته عن نشر هذه الفوائد السنية".

ولكن عبد الفتاح محمد الحلوى، ناشر نفحة الريحانة<sup>(٢)</sup>، لاحظ أن المرادى نفسه يملأ كتابه سلك الدرر بالنقل عنه والرجوع إليه، ويذكر أسماء من نقل عنه فى تراجمهم، ثم قال<sup>(٣)</sup>: "ولعل أول ما يلاحظ على هؤلاء المترجمين أنهم دمشقيون، فلعل السمان لم يمكّن إلا من تراجم أبناء بلده، أو لعل هذا هو

(١) أبو الفضل محمد خليل بن أحمد المرادى، سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر، ج ٢، ص ١٤٢.

(٢) المحبى، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ج ١، ص ٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥.

القسم الذى سلم من كتابه واعتمد عليه المرادى". وهذا هو ما حدا بروكلمان<sup>(١)</sup> إلى تسمية كتاب السمان تراجم أعيان دمشق، وقد ذكر له مخطوطات فى عدد من المكتبات.

وَألف عصام الدين عثمان بن على بن مراد العمرى الموصلى الحنفى (١٧٢١ - ١٧٧٩) كتاب الروض النضر فى تراجم أدياء العصر.

نتبين من هذه الجولة أن الكتب التى ترجمت للأدياء على أساس جغرافى استمرت منذ القرن العاشر إلى الثامن عشر، وإذا كانت القائمة التى تتبعتها ينقصها بعض القرون، فإنى أظن أن ذلك راجع إلى ضياع الكتب التى ألفت فيها أو عدم شهرتها فلم أهدت إليها، ولا أظن أن هذه القرون خلت من هذا الصنف من التأليف. وكانت بعض القرون من الثراء بحيث أنتجت أربعة كتب مثل الثانى عشر والثامن عشر، غير أن، الكثير منها اقتصر على كتابين. ونلاحظ أن أربعة من المؤلفين أصدروا تجمات لمصنفاتهم، وأن بعض هذه المصنفات وجدت من يختصرها أو يختار منها.

ونتبين أن كل واحد من هؤلاء المؤلفين كان يترجم لمعاصريه، ويتحرى ألا يأتى بمن أتى به سابقه من الأعلام إلا إذا وجد بين يديه مادة وافرة عنه غير موجودة عنده أو خالفه فى بعض ما أورده عنه.

ونتبين أن الأساس الجغرافى لم يتطور وفق زمن التأليف بحيث يصير عند المتأخر أدق وأحكم منه عند المتقدم، بل بقى كما هو فى ملامحه العامة، يتسع ويضيق وتكثر عناصره وتضيق، تبعاً لنظرة المؤلف، لا لاستفادته من قصور سابق وسعيه هو إلى الكمال. ولذلك نرى أكثرهم يجمع فى الفصل الواحد بين الأقاليم المتعددة بل المتباعدة، وكثيراً ما لا يفرق بين أبناء إقليم وإقليم داخل الفصل الواحد. ونجدهم يجمعون بين أبناء الأقاليم والطارئين عليها، طالت مدد إقامتهم

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، الملحق ٢، ص ٤٠٤.

أو قصرت. ونجدهم يختلفون فى ترتيب الأقاليم فى كتبهم لا لسبب جغرافى، وإنما لأسباب شخصية.

ونتبين أن التقسيم الجغرافى يصل إلى قمة كماله عند المغاربة. أما ابن بسام فيمكن أن نعلل الأمر باقتصاره على الأندلس وحدها. وأما ابن سعيد فقد تناول فى كتابيه العالم الإسلامى كله، ووصل فى تصنيفه إلى كمال لم يصل إليه أحد قبله أو بعده.

وتبقى إشارة ضرورية إلى كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد بن محمد بن محمد بن محمد المقرئ (١٦٣١)، فذلك الكتاب ينقسم إلى قسمين: أولهما عن الأندلس، وثانيهما عن الوزير الأديب. وظاهر التقسيم يوحى بأن المؤلف اتبع المنهج الذى يسلكه المؤلفون المحدثون عن الأدباء وانتاجهم من آثار. ولكن المقرئ لم يصرح بشيء من ذلك، وإنما أعلن أنه كتب أولاً عن الأديب ثم رأى أن يكتب عن الأندلس، وأن يجمع ما كتب فى كتاب واحد. وغير بعيد أن يكون إحساس قريب من إحساس المحدثين هو الذى دفعه إلى هذا الجمع الذى نعدم نظيره فى التراث العربى.

# اللغة العربية والعلوم الحديثة<sup>(٥)</sup>

## THE ARABIC LANGUAGE IN UNIVERSITY EDUCATION

Arabic: Mother tongue for more than 100 million people and sacred language for hundred millions of Muslims.

Colonization imposed foreign languages and medium of education in some Arab countries.

National, social and practical considerations for using Arabic as medium of education of science.

Some suggestions for overcoming certain obstacles:

- Arabic scientific terms to be uniform in all Arab countries.
- Translation of important reference books.
- Issuing scientific periodicals in Arabic.
- Encouraging the publication of scientific works in Arabic.

اللغة العربية إحدى اللغات العالمية، على أي مقياس اتخذته الإنسان. فإن أراد كثرة المتحدثين بها، فالعربية اللسان القومي لما يزيد على مئة مليون عربي، وهي اللسان المقدس لأضعاف ذلك العدد من المسلمين، يتخذون منه أداة لصلواتهم، وشعائهم، والتوسع في علوم دينهم.

وان قاسها على التاريخ، وجدها قد رسخت قرابة ستة عشر قرناً نعرفها، وقرونا أخرى لا نعرفها. ووجدتها أصدرت أدبا قيما، متعدد الأجناس الفنية، فسيح الأرجاء. وتصدر اليوم أدبا رائدا بين آداب العالم الثالث: ويبحث له عن مكان هو جدير به بين آداب العالم المتقدم.

(٥) مجلة اتحاد الجامعات العربية - العدد الخامس - مارس (آذار) ١٩٧٤.

ووجدتها أصدرت ثقافة عالمية، نسلت عن الثقافات الإغريقية والفارسية والهندية، وأجرت على ما أخذت منها ما فرضته طبيعتها من نقد ونقض وتحوير وتوليد، وأضافت إليه التتمة التي سارت به فى طريق الكمال، والإبداع الذى أسبغ على كل ما وجد فيها الأصالة الجليلة، فتيسر لها أن تسهم فى إنتاج الثقافة العالمية الحديثة.

وان بحث عن ثرائها اللغوى، تبين أنها تقتنى ثروة طائلة من الأصول الثلاثية والرباعية والخماسية، وتضم نظاما متكاملا لا يختل فى الاشتقاق، ونظاما متطورا فى النحت، بحيث تضارع غيرها من اللغات الكبيرة.

وعلى الرغم من ذلك تنفرد العربية عن أخواتها من اللغات العالمية الحديثة فى مجال التعليم. فقد أخضع المستعمرون الأوروبيون أنظمة التعليم المدنى فى الأقطار العربية التى احتلوها أو سيطروا عليها لسلطتهم المباشرة. وفرضوا لغتهم أداة لتعليم التلميذ العربى، وقد أرادوا بذلك القضاء على الثقافة العربية، للترفة بين الأقطار العربية، الأمر الذى ييسر احتلال القطر منها بعد القطر، ويمكن المستعمر من توطيد دعائم نفوذه فيه، ولم تستطع البلاد العربية التخلص من هذه الخطة العاشمة إلا بعد أن فطننت إلى سوء مغبتها، وكافحت من أجل مواجهةتها ودحضها.

وناضل المخلصون ليصلوا بالنظام التعليمى إلى ثمرته الطبيعية، فأنشئوا التعليم الجامعى، لتخريج المثقفين، الذين يستطيعون الاطلاع على الثقافة العالمية، وتخير الصالح منها لمجتمعاتهم، وأخيرا المشاركة فى ركب الحضارة. ولكن هؤلاء المخلصين فوجئوا بخلو البلاد العربية من القادرين على إدارة هذه الجامعات، وإلقاء المحاضرات فيها، واضطروا إلى أمرين: استدعاء العلماء الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية أو لا يستطيعون التدريس بها، وإيفاد الطلبة العرب إلى البلاد الأوربية لتلقى العلم فيها باللغات الأجنبية. وكلا الأمرين أدى إلى أن تبتعد اللغة العربية عن الجامعة، وتحل لغة أجنبية محلها.

وقد كانت هذه اللغة فى مصر والعراق والسودان الإنجليزية، وفى سورية ولبنان وتونس والجزائر والمغرب الفرنسية.

ولم تتحلل الأقطار العربية من قيد اللغة الأجنبية إلا بعد أن كثر أبناؤها الحاصلون على التعليم العالى، القادرون على التعليم بالعربية فعربت بعض الأقطار التسليم الجامعى كله، مثل سورية والمملكة العربية السعودية. وعربت بعضها أنواعا منه، وأبقت اللغة الأجنبية فى أنواع.

فاتفتت الجامعات العربية على صلاحية اللغة العربية للعلوم الإنسانية، وتفوقها فيها غير جامعة الخرطوم التى لازالت تسعى إلى تعريب العلوم الاجتماعية. وتوقف بعض الجامعات فى أنواع من العلوم وخاصة الجامعات المصرية. فأعلنت أن العربية تصلح لبعض أقسام الصيدلة وللمواد الطبية ذات التطبيق العلمى العام كالطب الشرعى والصحة العامة. وصرحت أن العربية لا تصلح الآن للعلوم الحديثة من طب وهندسة ورياضيات وطبيعة ونبات وحيوان وغيرها، لقيام عدد من العوائق يحول دون استخدامها فيها، وحافظت على تدريس هذه المواد بالإنجليزية أو الفرنسية.

ونستطيع أن نصنف هذه العوائق فميا يلى:

#### ١ - العوائق النابعة من اللغة العربية

فهذه اللغة لها طبيعتها الخاصة فى صرفها ونحوها، ولها قواعدها الكثيرة التى وضعها النحويون القدماء، وجمد من جاء بعدهم عليها. فعسرت على دارسيها من التلاميذ والطلبة. فنجد العربى يدرس القواعد اللغوية فى جميع مراحل دراسته، ولكنه ينتهى من هذه المراحل، وهو لا يحسن التحدث أو الكتابة بالعربية السليمة. فمدرس اللغة العربية يصب اهتمامه كله على حفظ الطالب للقواعد، لاعلى قدرة الطالب على التعبير الشفوى أو المدون، وهذه القواعد هى الهدف الحق من التعليم. ويجب أن تغير طرائق التعليم لتصل بالطالب فى يسر إلى هذا الهدف، مثل بقية دارسى اللغات المختلفة. فيتخفف

تعليم العربية من القواعد غير المستعملة، والظواهر الشكلية، والعلل الزائفة التي أتى بها المنطق الصورى، وتصطنع المناهج الحديثة فى تدريس اللغات.

ولا نتفرد العربية بما تتهم به من عسر، بل تشاركها فيه كثير من اللغات الأوربية بل ربما زادت عنها، مثل الألمانية والروسية. ولم يمنع ذلك من استخدام هذه اللغات فى العلوم، بل لقد بعثنا نحن من أبنائنا فى السنوات الأخيرة جماعات كبيرة للدراسة العلمية فى الاتحاد السوفيتى وألمانيا الشرقية خاصة. فاضطروا أن يتعلموا الروسية والألمانية ويتقنوهما ويتخذوهما لغتين لتخصصهم، ويبدو أن توفيقهم فى هذه اللغة كان أكبر من توفيقهم فى العربية: مما يوجب على محبى هذه اللغات وعلمائها أن يبحثوا عن أسباب نقص وسال تعليم العربية ويتجنبوها، وعن أسباب الكمال فى وسائل تعليم تلك اللغات ويوفروها للغتهم.

كذلك جمد الخط العربى عند أنماط معينة تراعى فى كتابة الكلمات العربية، بغض النظر عن نطقها، مثل هذا والذى واللذان وأولئك وداود وغيرها. ثم يذهب الخط إلى النقيض من ذلك فيشتمل على عدد من الكلمات غير ثابتة الرسم مثل الكلمات المهموزة.

ولا نتفرد العربية بهذه المشكلة بل ربما بزتها الإنجليزية فيها. وعلى الرغم من ذلك، فالإصلاح يسير، ولا بد أن يقوم على تسجيل الكلمة حسب نطقها، وإعطاء كل حرف رسماً واحداً لا يحيد عنه.

والعربية قيل إنها فقيرة فى المعاجم: المعاجم العامة التى تذهب بالباحث إلى ما يريد رأساً، وتقدم له التفسير الواضح للكلمة التى يبحث عنها، بل إن كثيراً من المفردات العربية ليس لها تفسير محدد، والمعاجم العلمية التى تفسر المصطلحات، وتعطى آخر كشوف العلوم وأحدث تطوراتها.

وإذا صح أى اتهام للعربية فلا يصح اتهامها بالفقر فى المعاجم اللغوية. فهى تشتمل على معاجم كثيرة متنوعة المناهج والأساليب، ربما لا تحتوى لغة أخرى على ما يماثلها.

فإذا كان المراد التفسير الدقيق للحديث للكلمات فإن ذلك لا يتأتى إلا باستخدام المفكرين لهذه الكلمات، ومنحهم المعانى المحددة لها. فإن لم يفعلوا، بقيت هذه الكلمات محتفظة بالرواسب القديمة، هلامية المعنى، ولم يستطع أصحاب المعاجم إلا أن يأتوا بها فى تفسيراتها الماثورة فى المعاجم القديمة. فمستوى اللغة وتطورها مرتبطان أوثق الارتباط بمستوى الأمة الثقافى وتطورها.

وإذا كان المراد الاعتداد بجميع حروف الكلمة فى الترتيب، وعدم التمييز بين ما يسمى بالزائد والأصلى منها، فذلك أمر يسير، أخذت به المعاجم الاصطلاحية والكشافات وما شابهها. أما المعاجم اللغوية فقد اختلفت، ولم يسر أكثرها على هذا الأسلوب، لأنه يفرق المادة اللغوية الواحدة ذات المعنى الأصلى الواحد فى مواضع متفرقة، مما لا يتلاءم مع لغة اشتقاقية كالعربية. وعلى الرغم من ذلك تحتاج المعاجم الحديثة إلى تخطيط جديد، يحدد فى وضوح الغرض من وضعها، والمفردات التى يقتضيها ذلك الغرض، والمناهج التى تيسر أخذ كل ما يريد القارئ أخذه فى أقصر وقت ممكن.

وإذا كان المراد معاجم المصطلحات فذلك أمر له موضعه الذى يناقش فيه مفصلاً قريباً.

إلى جانب ذلك، يرمى المتنوعون عن استخدام العربية من العلماء هذه اللغة بالقصور والتخلف نتيجة ما عانتها فى عصور الجهل العثماني الطويلة. ولم تستطع العربية التخلص من هذا القصور بمحاولة المشاركة فى العلوم، لأن تلك العلوم قطعت شوطاً بعيداً فى الترقى، وهو شوط متزايد الاتساع.

وتجلى أثر ذلك فى فقر العربية فى المصطلحات العلمية الدقيقة والمتزايدة فى كل لحظة، وفى فقرها فى الثورة العلمية الحديثة مؤلفة ومترجمة.

وإذا كان علينا أن نتغلب على هذه العوائق، احتجنا إلى ما لا قبل لنا به من المال، والطويل العريض من الوقت الذي يجب أن ننجز فيه ما نريد فى أسرع ما نستطيع، وإلا ضاع ما أنفقنا هباء.

ولذلك يخشى هذا الفريق أن يعزل التدريس بالعربية أبنائها عن الاتصال بالعلوم المتقدمة، السريعة التطور، ويعود بهم إلى مراحل التخلف.

وكل ذلك حق. لكن أنصار اللغة العربية يعلنون أن هذه القضية ليست من شأن مصر وحدها ولا أية دولة عربية منفردة، بل يجب أن تتضافر جهود الأمة العربية كلها من أجل التغلب عليها. فإذا ما تم ذلك تقاسمت الأقطار العربية الأعباء العلمية والمالية فلم يبهظ شيء منها كاهل واحدة منها، واستطاعت أن تصنف الجهود، وتوزعها على القادرين. فتخفف الحمل، وتختصر الوقت، وتوسع مجال العمل. فيتحقق لها كل ما تريد، بتحقيق اللغة العلمية العربية. ولعل ذلك قريب التحقق الآن، بعد إنشاء جامعة الدول العربية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

## ٢ - العوائق النابعة من القائمين بالتدريس

فقد مرونا على استخدام اللغة الأجنبية دارسين ومدرسين. فصارت لسائهم وقلمهم، وبعدت الشقة بينهم وبين العربية، فغمضت أمامهم صورتها وتشوهت، وخاصة إذا أضفنا ما قام بينهم وبينها من حجب بسبب دراساتهم الابتدائية والإعدادية والثانوية، وما يسمعون من زملائهم عنها، وما بثه المغرضون فينا عن صعوباتها ومشاكلها. ولذلك يخشى كثير منهم أن يقدم على استخدامها، فيحتاج إلى أن يبذل جهدا مضاعفا هو غنى عنه حين يستخدم اللغة الأجنبية.

وتلك قضية غير صحيحة، لأنها تقوم على تصور خاطئ. فمن عانى هذه التجربة أعلن أن صعوبتها فى الأسابيع الأولى، وسرعان ما تُخلى مكانها للنتائج الحسنة التى تبلغها، فتبعث الرضا فى نفوس القائمين بها.

وأود أن أضع الخلاف بين القائمين بتدريس المواد العلمية جانبا، وأن أبتعد بعض البعد عن المختلفين، الذين قد تغلب عليهم أهواء معينة أو تصورات زائفة أو قاصرة أو مبالغنة، فتفرض عليهم مواقف تجافى الواقع الملموس، أو الواقع الذى نتطلع إليه ونسعى من أجل تحقيقه. أبتعد لأضع القضية فى العراق، بعيدة عن التطبيق والممارسة. ولن أعتد فيما أدون على أوهام أو أمانى. ولن أتتبع أقوال من لا يدرك القضية أو يعى أصولها. لن أفعل ذلك لأننى ارتكز فيما اكتب على المؤتمر العام الذى عقده اتحاد الجامعات العربية فى فبراير/ شباط من سنة ١٩٧٣، والاستفتاء الذى اضطلع به المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى بالمغرب سنة ١٩٦٦، وأكثر الذين استطلعت آراؤهم من رجال الجامعات وخريجيتها.

تتفق جميع الآراء على أن اللغة العربية هى الأداة الطبيعية للتعليم الجامعى، على اختلاف علومه، وأنه إذا كان قد عدل عنها فى بعض العلوم فإنما ذلك لأجل محتوم، ولأنها تفقد بعض الصفات التى يطالب بها أصحاب هذه العلوم. وعلى الرغم من ذلك، يقولون فى جلاء أن العربية لا بد أن تصير الأداة المحتومة.

ولا تتفق الأقوال على هذا الرأى اعتباطا، بل تتفق عليه لأن الاعتبارات كلها تلتقى عنده، سواء الاعتبارات القومية أو الاجتماعية أو العلمية.

#### الاعتبارات القومية:

اللغة أهم مظهر من مظاهر استقلال الشخصية القومية لأية مجموعة من البشر. والعربية هى المقوم الرئيسى للوجود العربى، وأقوى الروابط التى تجمع بين الأقطار العربية، والدعامة الوطيدة التى يعتمد عليها العرب فى الوحدة التى يسعون إليها.

فالإصرار على العربية إذن إصرار على إثبات الوجود العربى، وعلى تيسير الوحدة أو التضامن العربى. فإن لم تقم الوحدة السياسية بين الأقطار العربية فى

وقت قريب، فإن الوحدة اللغوية والثقافية هي المسعى الضروري، الذى يجب أن يكون قريبا. ولن تتم هذه الوحدة إلا بالمحافظة على اللغة العربية، واستخدامها فى كل مجال، لأن ذلك يؤدي إلى وحدة الشعور والفكر والاتجاه بين العرب، وتلك خطوة لازمة لمن سعى نحو الوحدة السياسية.

والتعليم باللغة القومية أمر طبيعي، تحرص عليه جميع الأمم مهما اتسع أو ضاق نطاق المتحدثين بلغتها القومية، لا يخرج على هذا الإجماع إلا أصحاب اللغات البدائية الفقيرة فى المفردات والمجردات من أمثال الافريقيين والعجر والاسكيمو، أو أصحاب اللغات المحلية التى بلغت من التشتت والتعدد ما جعلها متدابرة لا يربط بينها رابط، مما اضطر أهلها على استخدام لغة أجنبية عنهم كالهنود. واستخدام لغة بديلة عن اللغة القومية ضار بها، وبالمجتمع الذى يفعل ذلك. فمثل هذا الصنيع يعزل اللغة القومية عن مصادر الحياة والنماء، وقد يقتلها. ومثل هذا الصنيع يخلق فى المجتمع الواحد جماعات ذوات ثقافات مختلفة، فينضم أصحاب كل ثقافة بعضهم إلى بعض، وقد يخاصمون غيرهم، كما كنا نرى فى مجتمعنا العربى بين أصحاب الثقافة الفرنسية وأصحاب الثقافة الإنجليزية. وأمثال هذا التفرق والتخاصم ضارة بالمجتمع حين يساء تأويلهما واستعمالهما.

#### الاعتبارات الاجتماعية

الجامعات مؤسسات علمية " تختص بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعى، والبحث العلمى الذى تقوم به كلياتها ومعاهدها فى سبيل خدمة المجتمع، والارتقاء به حضاريا، متوخية فى ذلك المساهمة فى رقى الفكر، وتقديم العلوم وتنمية القيم الإنسانية، وتزويد البلاد بالمتخصصين.. وإعداد الإنسان المزود بأصول المعرفة، وطرائق البحث المتقدمة، والقيم الرفيعة، ليساهم فى بناء وتدعيم المجتمع.. " (قانون تنظيم الجامعات المصرية، الصادر فى سنة ١٩٧٢).

ولن تستطيع الجامعة خدمة المجتمع العربى إلا بالارتباط به، وتعرف حاجاته، ودراسة أسبابها، ومواجهتها. أما الفصل بين الجامعيين ومجتمعهم

فيؤدي إلى عواقب وخيمة ، يؤدي إلى التمزق النفسى المدمر لحيرة الجامعيين إزاء الاختلاف بين القيم التى يتلقونها فى جامعاتهم والقيم التى يجتدونها فى مجتمعهم ، فإن نجوا من هذا التمزق وقعوا فى شبكة السخط على هذا المجتمع المتخلف ، دون أن يدفعهم ذاك السخط إلى محاولة الارتقاء به . فإن برثوا من التمزق والسخط خشينا أن يقعوا فى وهم يوسوس لهم أنهم فئة ممتازة لا تماثل بقية أبناء مجتمعهم ، فيترفعون عنهم ، ويمزقون ما يربط بينهم من وشائج ، تُبقى على المجتمع كله ، وترقى به .

والمجتمعات العربية الحديثة تسعى إلى تحقيق الديمقراطية السليمة لأبنائها ، تلك الديمقراطية التى تقوم على إتاحة الفرص المتساوية أمام الجميع ، وعدم حرمان أحد من حقوقه الدستورية بسبب المولد أو الدين أو الثروة أو ما إليها . وفى استخدام لغة غير اللغة القومية فى تعليم جامعى ما شبهة قَصْر له على القادرين على تلك اللغة ، وهم قلة أتاح لهم غناهم أن يتلقوا تعليما ابتدائيا وإعداديا وثانويا خاصا ، على حين لم يتح ذلك للجمهور الأعظم من أبناء الشعب .

أضف إلى ذلك أن استخدام العربية لغة للعلوم الحديثة يتيح للهواة والظالمين من غير رجال تلك العلوم أن يطلعوا عليها . فيتسع نطاق الثقافة العلمية فى المجتمع العربى ، ويرسخ الميل إليها ، وتعرف قيمها وقدراتها . فيقدم المجتمع لهذه العلوم رعايته وتشجيعه فى طواعية وسخاء ، نظرا لارتفاع المستوى الثقافى للأمة كلها . ولا يسمى إلى هذا الهدف الدول النامية وحدها ، بل الدول المتقدمة أيضا مما جعل كبار العلماء يصدرن الكتب المبسطة التى تتناول أرقى العلوم ، وأدق المسائل ، وأعوص القضايا . ولا يلجئون فى تلك الكتب إلى تبسيط المادة العلمية بل إلى تبسيط اللغة التى يعرضون بها تلك المادة . وأدى بهم إلى الوصول إلى ما أسموه اللغة الأساسية ، التى تقتصر على مفردات قليلة ، وتخفف من المصطلحات .

وييسر هذا الاستخدام لخريجي الجامعات العربية أن يقوموا بوظيفتهم الحقة التى يتطلع إليها مجتمعهم النامى. ييسر لهم أن يكونوا رواد حضارة متقدمة، يقدمون لأبناء أمتهم المعرفة الراقية، ويبينون لهم القيم الرفيعة، ويمثلون النماذج التى تستحق الاقتداء بها.

ويحثنا على هذا الاستخدام حاجة أخرى ملحة وسريعة لا بد أن نلبيها. فالمجتمع العربى يواجه فى العصر الحديث تحديا تكنولوجيا خطيرا، لا بد أن يكون كفؤا له. فوسائل البقاء والنماء والترقى كلها قد خضعت لتغيير كبير لا نغلو إذا سميناه انقلابا، إذ نبذت أدواتها القديمة واتخذت أدوات جديدة غاية فى الدقة والتعقيد. وصار العامل العادى عاجزا أمامها، مهما بلغت مهارته. ولذلك صرنا فى حاجة إلى طبقة وسيطة تتلقى قدرا ما من العلوم المتقدمة، يجعلها قادرة على العمل بهذه الأدوات الحديثة، وعلى صيانتها وإصلاحها؛ طبقة وسيطة بين العامل (القديم) والمهندس أو التكنولوجى الجامعى ذى التعليم العالى. ولن تستطيع المجتمعات العربية إفراز هذه الطبقة إلا بتيسير العلوم الحديثة أمام أبنائها، والسبيل القومى والسهل إلى ذلك هو استخدام العربية فى تعليم هذه العلوم. وإلا كيف يتم التفاهم بين هذه الطبقة ومن تعامل معهم من المهندسين، ومن أصحاب الأعمال؟

#### الاعتبارات العلمية:

التعليم عملية متصلة مترابطة الحلقات، لا ينفصل فيها التعليم الجامعى عن التعليم السابق عليه (العام) ولا عن التعليم التالى له (الدراسات العليا). ويقتضى هذا الاتصال وجود إطار للمناهج التعليمية بحيث تكمل مناهج كل مرحلة مناهج المرحلة التى تسبقها، وتعمل على الوصول بالطلبة إلى المستوى الذى تتطلبه الدراسة فى المرحلة التالية.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنه من العسير أن نغض النظر فى التعليم الجامعى عن التعليم العام. فقد رأينا المستعمر الأجنبى يفرض لغته على الطلاب العرب

فى تعليمهم العام. فلما نال العرب استقلالهم نظروا إلى هذه اللغات نظرتهم إلى بقية مظاهر الاستعمار وآثاره، وتحققوا منها ما استطاعوا فى التعليم الحكومى. أو أشرفوا عليها حتى لا تتجاوز حدا ما وضعوه أمامها، وخاصة أن أكثر طلاب هذه المدارس كانوا من أبناء الصفوة التى منحها مولدها أو مركزها المالى امتيازات لم يتمتع بها أبناء بقية الشعب، مما لا تبيحه الديمقراطية الحديثة، وكانت نتيجة ذلك كله، ضعف تعليم اللغات الأجنبية فى التعليم العام.

فإذا فرضنا على هذا الطالب أن يتلقى علومه بتلك اللغة، فرضنا عليه أن يواجه مشقتين: مشقة تحصيل المادة العلمية ووعيتها، ومشقة فهم اللغة التى تلقى بها هذه المادة. أما إذا فرضنا عليه الدراسة باللغة العربية، فإننا نغفیه من إحدى المشقتين ونوفر له جهدا يمكن له أن يستخدمه فى التحصيل العلمى وحده.

وقد قام الدكتور عبد الملك عبد الرحمن أبو عوف بتجربة تستحق التسجيل فى هذا الصدد. فقد اضطر عندما انتدب إلى جامعة دمشق أن يدرس الكيمياء العضوية باللغة العربية. فاستطاع أن يفعل ذلك بعد أسابيع. ثم قارن بين عمله فى القاهرة وفى دمشق فى قوله: " وما أحب أن أركز عليه.. هو حسن النتائج التى أحرزها الطلاب بالنسبة لنتائج طلاب كلية الصيدلة بالقاهرة، وضخامة التحصيل، وحسن الاستيعاب الذى توصلوا إليه، لأن الطالب هناك كان يفهم دقائق الموضوع مما كان يتيح له فرصة استيعاب قدر أكبر من معلومات المادة المعطاة. فتفهم الطالب اللغة المحاضرة والشرح كان يعفیه من بذل مجهود مضاعف ينصرف نصفه لفهم اللغة والتعرف على المفردات الصعبة فى اللغة الأجنبية التى يدرس بها، وذلك مهما تحرز المحاضر وتيسر؛ وينصرف النصف الآخر من الجهد لاستيعاب المادة نفسها. فضلا عما يعتور ذهن الطالب أحيانا من غموض فى المعنى أو نقص فيه يختل معه بناء المعلومات أو تنقل إليه بغير الصورة المقصودة من المحاضر، والمتفقة مع حقائق العلم الذى يدرسه الطالب " (١).

(١) الجامعات العربية والمجتمع العربى المعاصر ص ٤٠٦ موضوع المؤتمر العام الثانى لاتحاد الجامعات العربية.

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى قطع الصلة بين الأستاذ والطالب. فإن كثيرا من الطلبة يخشون ألا يستطيعوا التعبير عما يريدون أمام أساتذتهم وزملائهم، فيمتنعون عن السؤال والمناقشة. ولو كانت العربية أداة التعليم ما وقع هذا.

ويزيد هذا الأمر سوءا الأعداد الغفيرة التي تمتلئ بها الجامعات العربية، وتجعل التفاهم بلغة أجنبية قريبا من المحال. فقد حطمت كل العراقيل التي كانت تحول بين جماهير الطلاب والتعليم الجامعي. ولما كانت الإمكانيات المالية والعلمية للأقطار العربية لا تيسر لها الإكثار من الجامعات لتواجه هذه الأعداد المتزايدة المقبلة على التعليم الجامعي، اضطرت إلى تكديس الطلاب في الأقسام، بحيث يتعذر التفاهم بغير اللغة القومية.

ويؤدي استخدام اللغة الأجنبية في التعليم الجامعي إلى فصل هذا التعليم عن التعليم السابق عليه فصلا سيئا النتائج. فالطالب يدرس علومه كلها في تعليمه العام باللغة العربية. فإذا ما انتقل إلى الجامعة كان عليه أن يعيد دراسة بعض هذا الذى درسه بلغة جديدة، مما يزيد أعباءه ويقفده ميزة الانتفاع بمعلوماته السابقة أو يعوقه عن الانتفاع بها.

وإذا تركنا الصلة بين التعلّمين العام والجامعي، ونظرنا إلى لغة التعليم الجامعي في ذاتها، غاضين النظر عن كل شيء خارج عنها، وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة تستحق الإمعان من الجانب العلمى والسياسى معا.

فالعلم ذاته لا ينحصر فى لغة معينة الآن، بل له لغات متعددة. ولغة التعليم الجامعي العربى لم تقتصر على لغة واحدة، بل اتخذت بعض الأقطار الإنجليزية لغة لها على حين اتخذت بعضها الأخرى الفرنسية. وفى بعض السنوات الأخيرة قررت الألمانية فى بعض المعاهد التكنولوجية.

وأدى هذا إلى نتائج لها خطرهما. لم تستطع الأقطار التى اتخذت اللغة الإنجليزية لغة علمية الاستفادة من العلوم المزدهرة فى غيرها من اللغات، ولا

إرسال البحوث العلمية إلى غير البلاد المتحدثة بها، مما جعلها تابعة أو كالتابعة لإنجلترا وأمريكا، وكذا الحال مع بقية اللغات.

ولم تستطع الأقطار العربية أن تتابع البحث العلمى العربى، لأنه يصدر فى إحداها بلغة لا تحسنها الأخرى. ففقدت البلاد العربية بذلك أحد جوانب الوحدة الثقافية المتبتغاة، والتيسيرات العلمية والمالية التى يتيحها التعاون العلمى بينها.

واللغة العربية هى الوسيلة الوحيدة التى تجنب العلم العربى كل هذه المخاطر، وتكسب له كل التسهيلات. اللغة العربية هى التى تملأ الفجوة الفاصلة بين التفكير والتعبير عند من يحيون بالعربية ويتعلمون بغيرها، تلك الفجوة التى تبعث على الخلل والتأخر والتعطل وإضاعة الجهد. فإذا ما ردمت العربية الفجوات، مهدت الطرق إلى التفاهم السريع المتعمق المتسع، الذى يرتفع بالمستوى العلمى، ويبسر الاستيعاب فالإبداع أمام العلماء العرب الذين خلصوا من القيود اللغوية، فانطلقوا فى الأجواء العلمية.

فذلك هو الذى دعا اليونسكو إلى التوصية بجعل اللغة القومية لغة التعليم فى مراحله كلها، ودعا الاتحاد السوفيتى إلى أن يرضى أن تكون اللغات المحلية لغة التعليم العالى عند كل قومية من القوميات التى يضمها، على الرغم من التعارض بين هذا الصنيع وبعض ما يدعو إليه من مبادئ.

وذلك أيضا الذى دعا واضعى قوانين الجامعات العربية على النص على العربية لغة للتعليم فيها، وإن كان هذا النص مؤجلا للتطبيق فى بعض الكليات استثناء.

ومهما يكن من شىء، يجب التأكيد أن كل من تناول هذه القضية، سواء اعتدل أو تطرف، طالب بالتدريس باللغة العربية أو بتأجيله، كل هؤلاء صرحوا فى جلاء أن استخدام اللغة العربية لا يعنى بالضرورة إهمال اللغة الأجنبية بل يقتضى النقيض، يقتضى العناية بها فى التعليم العام والجامعى. فلا بد لنا من

الانفتاح على العالم إلى أقصى درجات الانفتاح. ولن يكون هذا ممكنا أو تاما دون أن نتقن واحدة على الأقل من لغات العالم الرئيسية، تتيح لنا استمرار الاتصال بالتطور العلمي العالمي، ومتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية، والتمكن من إتمام الدراسة العليا، ونشر البحوث العلمية فى المجلات العالمية. وربما أمكنت الإفادة من المتبع فى بعض كليات الآداب فى هذا الصدد. فقد قررت هذه الكليات تدريس بعض الموضوعات أو الكتب أو الفصول أو النصوص باللغة الأجنبية، إيماناً منها بحتمية اتصال الطالب بهذه اللغات والإفادة منها. وفى هذه الحالة لا يدرس الطلاب علما كاملا باللغة الأجنبية، فتقطع الصلات بينهم وبين اللغة القومية. ويحسن أن تغير هذه الموضوعات المدروسة باللغات الأجنبية بين فترة وأخرى، ويستبدل بها غيرها.

ولعل أجمل ختام لهذه الدعوة ما قاله الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود، فى مقاله الذى تناول فيه مشكلة الجمع بين الأصالة والمعاصرة لدى البلاد الغامية. قال: " فإذا صببنا المضمون العلمى بمميزاته فى وعاءين من عندنا كانت لنا النتيجة التى نريد. أما الوعاء الأول فهو اللغة. فانقل إلى اللغة العربية نتاج الفكر العصرى كما هو يصبح هذا النتاج عربى القسما والملامح. وأما الوعاء الثانى فهى قواعد السلوك من تشريع وعرف... " (الأهرام ١٢ / ٨ / ١٩٧٣)

◊ ◊ ◊

دعت الدواعى كلها إذن إلى إيجاد لغة علمية عربية، تتخذ أداة للتعليم والتأليف فى العلوم الحديثة. أحس بذلك كل عربى غيور على عربيته وعروبه، واضطلعت هيئات علمية متعددة بجهود قيمة تلبية لهذا الاحساس.

وليس هذا موضع تناول هذه الجهود ولا تتبعها، فإن محاولة ذلك تحيد بنا عن طريقنا فى هذا المقال، وتتشعب فى مسالك عدة، أعتقد أن كثيرا منها يستحق مقالا منفردا. ولكننى لا أملك أن أغفلها كل الإغفال. ولذلك أعمد إلى الإشارة السريعة للتذكير.

من أجمل ما عثرت عليه المجلس الأعلى للعلوم، الذى أنشئ بعد الوحدة بين مصر وسورية فى الجمهورية العربية المتحدة. فقد وضع ذلك المجلس خطة رائعة لتعريب كتب العلوم الأساسية، التى جعل منها مجموعتين شملت أولهما ١٥ كتابا (١٤ كتابا منها مترجما، وكتابا واحدا مؤلفا) وثانيتها ما يقرب من ذلك. واختار المجلس عددا من الكتب التى حازت شهرة عالمية، وكان لمؤلفيها مكانة بين العلماء. فترجمها جماعة من المختصين ترجمة قيمة، وطبعوها طباعة جميلة. والتزموا فيها أسسا، بعضها مرضى مثل الكشافات العربية والإنجليزية التى ألحقوها بكتبهم لتوضح ما استخدموه من مصطلحات، والاعتداد بالمصطلحات المتداولة، وإبقاء الأسماء اللاتينية للمعادن والحيوانات والنباتات وما إليها، وكتابتها بالحروف العربية، ووضع المقابل العربى معها، وبعضها يحتاج إلى إعادة نظر وتمحيص مثل الاحتفاظ بالرموز والمعادلات الأجنبية.

والمؤسف أن هذا المشروع وُثِد مع موت الوحدة، فلم يصدر منه بعدها غير كتب قليلة ثم فقد. وكان الأمل أن يتطور ويترقى إلى أن يصل إلى الشكل المرضى.

ومن الأعمال الطيبة التى يجب الاهتمام بها الدوريات العلمية التى تصدرها الهيئات العلمية فى مختلف أنحاء العالم العربى كل فى اختصاصه. فقد أسهمت هذه الدوريات فى بسط مجال العلم، وتعريف منجزاته، وتعريب كثير من كشافه، وترجمة كثير من اصطلاحاته. فكانت ولا تزال لها يد بيضاء فى سبيل ابتكار اللغة العربية العلمية.

ومن أهم الأعمال الجهود الهائلة المثمرة التى بذلها مجمع اللغة العربية بمصر والمكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط خاصة فى ترجمة مصطلحات العلوم المختلفة، تلك الجهود التى نالت نجاحا كبيرا فى الاختصاصات المختلفة، ووصلت إلى نتائج رائعة، ووضعت طرائق سليمة للعمل فى حقل المصطلحات.

ولكن هذه الجهود من التفرق والتباعد والجزئية بحيث تضيف إلى المشكلة الأصيلة مشاكل فرعية أخرى. ولو سارت الأقطار العربية فى الطريق الذى سارت فيه إلى اليوم ما اقتربت من غايتها أكثر مما هى عليه الآن أو لاحتاجت إلى وقت طويل لتصل إلى ما تبتغيه.

فلن توجد اللغة العلمية العربية إلا على أسس من التخطيط، والتخصيص، والتوزيع، والتنسيق، والتوحيد.

لن توجد هذه اللغة إلا بمشاركة كل جماعة علمية، من الجامعات والمجامع العلمية واللغوية ومراكز البحوث واللجان والمؤتمرات والندوات والجماعات العلمية.

يجب أن يفرّد كل عبء على حدة، ويوزع على المختصين القادرين على تحمله، فى العالم العربى كله. ثم يجتمع هؤلاء المختصون المتفرقون لينسقوا ما وصلوا إليه إن لم يصلوا به إلى الوحدة التامة. ويمكن أن يتم هذا تحت إشراف الاتحاد العلمى العربى.

وأتصور الاتحاد العلمى العربى يسعى إلى انجاز ما يلى:

١ - وضع المصطلح العلمى العربى ورموز العناصر الكيميائية والوحدات المستعملة فى العلوم الرياضية والطبيعية.

فإن عدم وجود المصطلح العلمى العربى أكبر عائق يعتمد المتعلمون عن استخدام اللغة العربية عليه. وهذا الاعتماد فاسد أصلاً، لأنه يخلط بين المصطلح الذى هو وعاء واللغة التى هى أداة تفاهم. ولو تحدث المتحدث بالعربية ثم حشاها بالمصطلحات الأجنبية كلها لما أخرجته ذلك عن التحدث بالعربية.

وقد بذلت جهات متعددة وأفراد كثيرون جهوداً جبارة لوضع مصطلحات عربية تقابل المصطلحات الأجنبية. وقد أخفقت بعض هذه الجهود، وأفلح

بعضها، غير أن المصطلحات التي وضعت اختلفت من قطر عربي إلى آخر، بل اختلفت في القطر الواحد أحيانا. فلم تبق مشكلة المصطلح عند إيجادها بل أضيفت إليها مشكلة التوحيد بين المصطلحات المتنافرة أيضا.

ونستطيع أن نقول إن وضع المصطلح يجب أن يمر بالمراحل التالية، إن لم تفلح المرحلة الأولى جربت الثانية.

- التفتيش عن المقابل العربي الفصيح في المعاجم اللغوية.

- التفتيش عن المقابل العربي الفصيح في التراث العربي، ولو أهملته المعاجم.

- الالتجاء إلى المشتقات القياسية أو تضمين اللفظ القديم معنى جديدا أو النحت من كلمتين أو أكثر.

- التفتيش عن الألفاظ المولدة في التراث العربي الصادر بعد عصور السلامة اللغوية.

- قبول الألفاظ العامية التي لا يوجد لها مقابل فصيح كما نرى عند أهل الصنائع.

- قبول بعض المصطلحات العلمية الأجنبية التي شاعت في لغات العالم، كما في علوم النبات والحيوان.

وألف مجمع اللغة العربية بمصر، الذي أراد أن يضم السلامة والرضا للمصطلحات التي يضعها، ألف أن يضع المصطلح بين أيدي الجماعات التالية لتصقله:

- تضع المصطلح لجنة من مجموعة من اللغويين والخبراء بالعلم الذي ينتمي إليه المصطلح. ثم يناقش المصطلح أمام مؤتمر المجتمع الذي يضم ممثلين من الأقطار العربية الأخرى.

وربما ناقش المجتمع مصطلحاته أمام مؤتمر المجامع العربية الذى تم فى السنوات الأخيرة.

ولو حدث هذا، وأضيفت إليه نصيحة خبير اليونسكو أن توضع مصطلحات كل علم جملة معاً، واستخدمت الوسائل الآلية السريعة فى المتابعة، لوفرنا وقتاً وجهداً كبيرين.

ويتبقى علينا لاتمام الغرض أن تنشر هذه المصطلحات على نطاق واسع، فى مجالات المجامع اللغوية، والدوريات العلمية المختصة، وقوائم ترسل إلى الجماعات العلمية، وأخيراً فى معاجم خاصة بأحد العلوم وعامة لكل العلوم، ويسيرة فى الترتيب. ويحسن أن تصدر طبعات شعبية رخيصة من هذه القوائم والمعاجم تيسيراً لشيوعها، وأن تحافظ المجامع على صلة لا تنقطع بالهيئات العلمية، وخاصة فى حقل المصطلحات.

وآخر الخطى يجب أن يقوم بها العلماء أنفسهم. فقومتهم تفرض عليهم أن يتابعوا هذه المصطلحات، وأن يلتزموا فى أعمالهم، لأنها لن تحيا إلا بالاستعمال. وليتهم يذيلون كل واحد من كتبهم بقائمة تضم أهم المصطلحات فيه.

ويستطيع الاتحاد العلمى العربى أن يشرف على هذه الأعمال، وينسقها، ويقدمها للعلماء، بالمشاركة مع المجمع اللغوى. فقسّم اللجان العلمية مع اللجان اللغوية فى العمل معاً.

## ٢ - ترجمة أمهات المراجع العلمية والبحوث الجديدة.

من العوائق الخطيرة التى تحول دون اتخاذ العربية لغة للعلوم الحديثة فقرها فى المراجع الهامة، والخوف أن تعزل العلماء عن الركب المتقدم فى سرعة هائلة لهذه العلوم.

وعلى الاتحاد العلمى العربى ان يتغلب على هذا العائق بأن يضع مشروعاً واسعاً للترجمة، يقوم على شقين: الشق الأول ترجمة المراجع، وأمّهات الكتب التى يحتاج إليها العلماء وطلاب الدراسات العليا ومن يريدون الاتساع فى علومهم. والشق الثانى ترجمة البحوث الحديثة وخاصة تلك التى تحمل رأياً جديداً أو كشفاً مبتكراً أو أحد الفتوح العلمية، لملاحقة التقدم العلمى فى اللغات الأكثر شيوعاً على الأقل. ولما كانت البحوث التى تنشر فى أنحاء العالم تزيد على مئتى مليون بحث فى السنة، فى نحو أربعين لغة، كان على الاتحاد أن ينشئ شعبة أو ديواناً للترجمة، يشبه دار الحكمة التى أنشأها العباسيون فى العصر القديم، ومدرسة الألسن التى أنشأها محمد على فى بدايات عصرنا الحديث. وليس هذا الأمر بالغريب فى عصرنا الحاضر بل هو النظام الذى يعمل به كثير من أمم العالم الكبيرة والراقية كالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى.

وغاية هذا الديوان جمع الكتب والبحوث الجديرة بالترجمة، وتوزيعها على الجامعات العلمية القطرية، والإشراف على الترجمة والطبع.

ويحسن اختيار المترجمين الأكفاء من كبار العلماء والمتخصصين، وتثريتهم للترجمة، ومنحهم المكافآت المجزية، واحتساب ترجماتهم عند ترقيةهم. ويحسن أن نفيد من النظام الذى وضعه محمد على للترجمة، فقد ألحق بكل مدرسة عالية تقوم بالترجمة جماعة دائمة من المصححين من شيوخ الأزهر. فصارت هذه الجماعة بعد زمن قليل على إلف بالعمل الذى تصححه، عارفة بمصطلحاته، قادرة على فهم لغته فهما تاماً، ومن ثم على إصلاح هذه اللغة.

وإذن فديوان الترجمة يتيح للأقطار العربية ترجمة ما هى فى حاجة إليه، دون أن يتأخر عن وقت حاجتها، وأن يوزع عبء الترجمة على الأقطار كلها، وأن يجنبها تكرار الكتب المترجمة كما نرى فى الوقت الحاضر. فيحقق ما كان

المجلس الأعلى للعلوم فى الجمهورية العربية المتحدة يسعى إلى تحقيقه، بل يحقق أكثر مما كان هذا المجلس يسعى إليه، نظرا لاتساع مجاله، وشموله الأقطار العربية كلها أو معظمها.

### ٣ - تشجيع إصدار الدوريات العلمية:

ربما لا تستطيع الترجمة أن تلاحق السيل المتدفق فى كل مكان من الكتب والمقالات والبحوث ولذلك لجأت الدول المختلفة إلى إصدار المجلات والدوريات والنشرات الدورية، لسد الفجوة الزمنية بين صدور البحث فى لغته الأصلية وصدور الترجمة.

وتسعى هذه الدوريات إلى : ترجمة المقالات والبحوث الصغيرة التى يمكن إصدارها فى مجلة دون أن تجور على غيرها، ونشر خلاصة وافية للبحوث الطويلة، ونشر عرض واف معلق عليه للكتب الهامة.

ويمكن أن نضيف إليها فى دورياتنا المقالات والبحوث العربية، وخلصات رسائل الماجستير والدكتوراه المقدمة فى الجامعات العربية، والمصطلحات المتفق عليها.

ويحسن أن يكون للاتحاد مندوبون علميون فى الدول المختلفة يتابعون الجهود العلمية، وينقلونها إلى البلاد العربية، لتناولها فى هذه الدوريات ملاحقة للتطور العلمى المستمر، ومتابعة لآخر ما تنتجه قرائح العلماء فى أنحاء العالم المتباعدة.

وتصدر الهيئات العلمية فى الأقطار العربية أمثال هذه الدوريات، لما يشبه الأعمال التى تحدثت عنها، وأقتراح أن تتعاون الهيئات العلمية ذات الاختصاص الواحد فى الأقطار العربية كلها، فى ظل الاتحاد العلمى العربى، لإضفاء الشرعية العلمية على كل ما تقوم به هيئة على حدة، ومنحه الطابع العربى العام، ويلقى ترحيبا أكثر، وإقبالا أعظم وأوسع.

#### ٤ - تشجيع نشر المؤلفات :

طبيعى بعد أن يقوم الاتحاد العلمى العربى بما وصفناه تشجيعا للعمل العربى، ووصلا له بالعلم الأجنبي، لبلوغ مرحلة الابتكار، طبيعى أن يرمى كل الجهود التى تسعى إلى ذلك، وعلى رأسها التأليف، والتأليف المبتكر خاصة.

وأفضل وسائل رعاية المؤلفات العلمية إنشاء مؤسسة عربية كبيرة لنشر المؤلفات (والمترجمات العلمية) التى يضطلع بها علماء جميع الأقطار العربية، وخاصة تلك التى لا يقبل عليها الناشر الفرد لقله المكسب أو بطه التوزيع أو ما إلى ذلك مما يعوق تأليف أمثال تلك الكتب. وتخصيص المكافآت السخية للمؤلفات المبتكرة خاصة، ورصد الجوائز التشجيعية والتقديرية للبحوث القيمة.

إن قضية التعليم الجامعى، وقضية اللغة العربية، وقضية التعليم الجامعى كله باللغة العربية، من القضايا القومية ذات الأثر العظيم فى المجتمع العربى كله. فلا يمكن أن تترك لعاجز أو كسول أو متهاون أو منعزل عن أمته، ولا أن تترك لمغامر أو مستهتر أو متعصب، ولا أن يحمل أعباءها قطر واحد أو أقطار متعددة، غير أنها متباعدة يعمل كل منها على حدة، وكيفما اتفق له.

إنها قضية تحتاج إلى استبانة الأهداف الحقة، والطرائق التى تؤدى إليها فى غير تشعب ولاضلال.

هى فى حاجة إلى التخطيط السليم، والتنسيق الشامل، والمنهج الدقيق، والتنفيذ الواعى الدهوب.

obeikandi.com

## دراسة في كتاب العين للخليل بن أحمد\*

ينفرد العراق بامتلاك عدة نسخ من أقدم معجم لغوى أخرججه العرب، أعنى كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، عالم البصرة وعبقريها، المتوفى حوالى سنة ١٧٥ هجرية .

وكان هذا الكتاب مثار نزاع شديد منذ أن وقعت الأبخار عليه إلى يومنا هذا. فدفعنى ذلك إلى أن أحاول أن ألقى شيئاً من الضوء على أقدم نسخة منه فى بغداد، وهى النسخة التى تقتنيها مكتبة حجة الإسلام السيد حيسن الصدر، وقرغ منها كاتبها إبراهيم الأصفهاني فى " سنة أربع وخمسين بعد الألف". وربما استطاع ذلك أن يضىء بعض جنبات ما يثار حول الكتاب من مشاكل .

وتستهل النسخة بإيراد السند الذى وصل الكتاب عن طريقه . قيل: " قال أبو معاذ عبد الله بن عائذ: حدثنى الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل بجميع ما فى هذا الكتاب ."

ولم يستطع الباحثون أن يتعرفوا على أبى معاذ هذا. ومال برونلش<sup>(١)</sup> إلى أن الأسم محرف، وصوابه: أبو معاذ عبد الجبار بن يزيد، الذى ذكره السيوطى<sup>(٢)</sup> بين رواة كتاب العين . وملت أنا - فى بحث سابق<sup>(٣)</sup> - إلى أنه معروف بن حسان، الذى روى عنه أحمد بن فارس<sup>(٤)</sup> . وإلى اليوم لم نصل إلى يقين فيه .

---

\* مجلة الآداب - بغداد - العدد العاشر - ١٩٦٧ .

(١) مجلة إسلاميات Islamica المجلد الثانى ص ٦٩ .

(٢) المزهر ١ / ٤٦ .

(٣) المعجم العربى ٢٠٣ .

(٤) المقاييس ١ : ٣٣ ، ١٩٨ ، ٢٤٠ .

وبعيني في هذا البحث أن السند قصير، لم يتعد رواية واحدا أخذ عنه الليث مباشرة. فالكتاب - بصورته الراهنة - يجب أن يكون قريب العهد بالليث، ولم تعبت الأيدي به .

لكننا ما إن نقرأ في الكتاب حتى نتبين أن هذا الاستنتاج غير صحيح . فلا يضم الكتاب - في صورته الراهنة - رواية واحدة، بل عدة روايات ، وإن شئت الدقة في التعبير قلت يعتمد الكتاب الحال على عدة نسخ سابقة عليه ، راجعها كاتبه . وسار في ذلك على نهج قريب مما يسير عليه محققو المخطوطات في أيامنا هذه .

فقد اختار من النسخ التي بين يديه واحدة ، جعلها الأم التي اعتمد عليها، والتزمها في الكتاب ، غير مواضع قليلة خرج فيها عليها ، إذ لم يرضها ، وآثر ما في غيرها عليها. ونبّه على ذلك ، فجعلنا نتعرف على عمله . قال في مادة مدخ: " المدخ : العظمة " .  
رجل مديخ : أى عظيم عزيز . قال :

مَدَّ خَاءَ كُلِّهِمْ إِذَا مَا نُوكِرُوا يُنْفَى كَمَا نَفَى الطَّلِيَّ الْأَجْرِبُ

وفي النسخة مُدَّخَاءَ كُلِّهِمْ " وقال في مادة ثرم " ثرمت الرجل فثرم. وكان في النسخة : أثمرتُ ."

وقابل الكاتب "النسخة" التي اتخذها أساسا لعمله ببقية النسخ التي كانت عنده. ونبه على كل ما خرج من هذه المقابلة . وكان عندما يفرغ من إيراد ما أراد إيراده يعود إلى " النسخة " (١) .

وأكثر ما نبه عليه الروايات الأخرى في الكلمة التي يريد أن يفسرها . فكانت هذه الروايات تزيد أحيانا على حروف الكلمة، قال في مادة قفند : "

---

(١) انظر بزل .

القَفَّذُ : الشديد الرأس . وفى نسخة " القَفَّذُ " . وانتقصت أحيانا من حروفها ، قيل فى مادة زند " المَزْدُ : اللثيم ، ويقال الدَّعى ، ومنه المَزْدُ . وفى نسخة : الزُّدُ : اللثيم . ومنه المَزْدُ " (١) . وغيّرت ترتيب بعض الحروف أحيانا ، قيل فى مادة نمسن : " نَمَسَنَ اللحم : تغير ، ونحوه مثله .. وفى نسخة : نشم اللحم : تغير " (٢) . وغيّرت الحروف أنفسها أحيانا أخرى ، قيل فى كنعص : " الكِنَاصُ والكناصة من الإبل والحُمُر ونحوها : الشديد القوى على العمل . هذا الحرف فى نسخة بالباء فى بابه " . وكشفت فى بعض الأحيان عن خلط وقع بين المد والقصر ، قيل فى مادة توى : " التواء - ممدود : ذهب المال الذى لا يُرْجَى . وفى نسخة : التَوَى ، مقصور (٣) " ؛ أو بين التذكير والتأنيث ، قيل فى مادة نول : " النَوْلُ : اسم للقبلة . وفى نسخة : النولة " ؛ أو بين الصيغ المختلفة من المادة الواحدة ، قيل فى ثبن : " ثَبَّنْتُ ثَبَانًا - وفى نسخة : تثبنت ثبانا : إذا جعلت شيئا فى الوعاء ثم حملته بين يديك " .

وأخذ من النسخ الأخرى فى بعض الأحيان روايات فى بعض مشتقات المادة التى يعالجها ، قال فى مادة جدر : " الجَدْرُ : ضرب من النبات ، الواحدة بالهاء ، ومن الشجر الدَّقُّ ينبت فى القفاف الصُّلاب ، فإذا طلعت رؤوسها فى أول الربيع يقال : أَجْدَرَت الشجرةُ ، وأجدرت الأرض ، فهو جَدْر - وفى نسخة : مُجْدِر - حتى يطول فإذا طال تفرقت أسماؤه " . وقال فى مادة رمى : " الرَّمَى : قطع صغار من السحاب رفاق قدر الكف أو أكثر شيئا ، والجميع الأرماء . وفى نسخة " الأرمية " .

(١) وانظر قزع .

(٢) انظر باب اللفيف من حرف الذال ، واللام .

(٣) انظر برد .

ونقل من هذه النسخ في أحيان أخرى تصحيحا لبعض الألفاظ الواردة في تفسير المواد التي يعالجها ، قيل في مادة رجب " الرَّجْبَة - والجمع الرَّجَاب : وهو شيء من وصف الأدوية . وفي نسخة "الأردية " ، أو تصحيحا لبعض الأحكام ، قيل في مادة دكو : " الدُّكُوات : تِلَالٌ خِلْقَةٌ ، لا تُفْرَدُ واحدها . وفي نسخة : واحدها دكاة مثل غَزَاةٍ وَغَزَوَاتٍ " .

ونستنتج من الأقوال التي نثرها الكاتب أنه كان يقابل بين أكثر من نسختين. فعندما اقتصر الأمر على اثنتين منها أشار إليهما بصيغة التثنية ، وقال في مادة سرهد : " سنام مُسْرَهْد - في نسختن .. وهو المقطوع بعرض قطعا" وفي غير هذه الحالات ، أشار بصيغة الجمع ، قال في مادة حج : "الحِجَّة : شحمة الأذن" . قال ليبيد :

يَرُضْنَ صَعَابَ الدُّرِّ فِي كُلِّ حِجَّةٍ      وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَعْنَاقَهُنَّ عَوَاطِلًا

ويقال : الحجة ها هنا : الموسم . والدر - بالضم - كان في النسخ كلها".

وعندما نجمع إشارات الكاتب نصل إلى أنه كان بين يديه ست نسخ - على الأقل - يردد نظره فيها ، وينقل عنها . بل إنه يمنحنا أسماء أصحاب هذه النسخ ، وإن كان ذلك غير كبير الفائدة ، لأن هذه الأسماء مبهمه ، لم أستطع التعرف على أحد منها .

وأكثر الإشارات إلى النسخة التي نسبها إلى " الحاتمي " وخرج منها بفوائد شتى ، أهمها تصحيح الكلمة التي يريد أن يفسرها ، مثل قوله في مادة عصب : " رجل مُعْصِوبِ الخلق : كأنما لُوي ليا .. وفي نسخة الحاتمي : رجل معسوب الخلق " ، وقوله في مادة شن : " الانشان : في الغارة ، انشنوا الخيل غارة : أي بئوا . وفي نسخة الحاتمي : أَشْنُوا الخيل ، والإشنان في

الغارة<sup>(١)</sup> . ولم يصحح فى بعض الأحيان الكلمة المفسرة ، بل صحح كلمة وردت فى التفسير، مثل قوله فى مادة تغ : " التغتغة : فى حكاية الحبلى . وفى نسخة الحاتمى : حكاية الحبلى " وفى مادة قتر : " يقال : أغالبك إلى عشر أو أكثر ، فذلك القتر، تقول : كم جعلتم قتركم ؟ ويقال : هى القطنة التى يرمى بها الهدف . وفى نسخة الحاتمى : هى القصة<sup>(٢)</sup> " .

وأخذ منها أحيانا تفسيراً للكلمة يخالف التفسير الذى كان فى النسخة التى اعتمد عليها ، مثل قوله فى مادة شرى : " شرى السحاب يشرى شرباً : إذا كثر . وفى نسخة الحاتمى : إذا تفرق فى الغيم " .

وأورد فى المتن أحيانا تفسيراً صرفياً ، أخذه من نسخة الحاتمى دون أن يبين أكان هذا التفسير موجوداً فى " النسخة الأم " وأخذه من الحاتمى لترجيحه صحته أم لم يكن موجوداً . قيل فى مادة موت : " مَيَّت : فى الأصل مَوَيْت ، وَسَيْدٌ : سُوَيْدٌ ، فأدغمت الواو فى الياء ، وثقلت الياء ، هذا فى نسخة الحاتمى والزوزنى . وأما فى نسخة مطهر فإنه قال : كان فى الأصل : مَيَّوت ، وَسَيْوِدٌ ، ويخفف فيقال : مَيَّت " .

وأضاف إلى " نسخته الأم " أحيانا زيادات يبدو أنه لم يجدها إلا فى نسخة الحاتمى ، فقد قال بعد أن فرغ من الهاء والكاف والراء : " باب الزيادة التى فى نسخة الحاتمى : هكر : الهكر : منتهى العجب ، قال أبو كبير : ه فاعجب لذلك فعَلَ دهره وهكران : غدير : قال حميد : ه بهكران فى مرج كثير بصائر ه أى من يُبصره " .

(١) وانظر صمغ ، وضغت ، وقربس وقلندم ، وثقل .

(٢) وانظر صلو .

ويتضح من مادة موت التي سبقت أن الكاتب كان فى بعض الأحيان يستبعد ما فى نسخته ويؤثر عليه ما فى نسخة الحاتمي ، كما فعل أيضا فى مادة العين والقاف والزاء من الرباعي ، قال : " القَفَنُزعة : المرأة القصيرة جدا ؛ هذا فى نسخة الحاتمي . وفى نسخة أخرى : القَفَنُزعة : المرأة الصغيرة جدا . "

والنسخة التي تلى نسخة الحاتمي فى كثرة الإشارة إليها هى تلك التي نسبها إلى مطهر . وظهر لنا فى مادة موت التي سبق ذكرها أنه أخذ منها بعض التفسيرات الصرفية . وتبين من بقية الإشارات أن أكثر استفادته منها كان فى تصحيح الكلمات التي يراد تفسيرها ، كما قيل فى مادة قصد : " المقتصد من الرجال : الذى ليس بقصير ولا جسيم ، ويستعمل فى غير الرجال . فى نسخة مطهر : مقصد من الرجال <sup>(١)</sup> . "

وأورد منها أحيانا تفسيراً يخالف ما عنده ، قيل فى مادة معص : " معص الرجلُ مَعَصاً فهو مَعِصٌ ممتعص : وهو شبه الخجل . قال أبو ليلى : المعص : يكون فى الرجل من كثرة المشى فى مفصل القدم . وفى نسخة مطهر : هو تكسير يجده الإنسان فى جسده من ركض أو غيره . "

وكل ما سبق أمور سبق أن رأينا ما يماثلها فى نسخة الحاتمي ، ولكن نسخة مطهر انفردت بإيراد بعض التصحيحات والروايات فى الشواهد الشعرية والنثرية . قيل فى مادة عنكب : " قال ذو الرمة :

هى اصطنعته نحوها وتعاونت على نسجها بين المثاب عناكبه

وفى نسخة مطهر : وحدها وتعاونت ، يقول : إما أن نسجها واحدة أو أعانها على نسجها عناكب . " وقيل فى مادة رثى : " المترئى : المتوجع الهجوم . قال الراجز :

---

(١) وانظر كنعن ، وأمه ، وسرهد ، وثفل ، وضغت .

حنين ثكلى فقدت حميما      فهى ترثى أبى وابنى ما

معناه : وابنى ، على الندبة . وما : ها هنا وجوب وتوكيد ، كما قال :  
أحبيبٌ حبيبك هوناً ما كى ما يكون بغيضك يوماً ما ، أى لا تحب حيبك حبا  
شديدا ولكن أحبه هونا فعسى أن يكون بغيضك يوماً . ويفسر ( ما ) ها هنا أى  
هكذا فافعل . وفى نسخة مطهر : عسى أن يكون . وكان فى نسخة أبى عبد  
الله : المرثى ، بغير التاء ."

يلى ذلك نسخة أبى عبد الله ، التى لم يأخذ منها إلا ما أوردته من  
خلافات فى حقيقة الكلمة التى يراد تفسيرها : أعنى حروفها وضبطها ،  
وخلافات فى تفسيرها . وقد أوردت من مادة رثى مثالا للنوع الأول ، إذ أورد أبو  
عبد الله صيغة من الكلمة غير الواردة فى أصل الكتاب . وكذا فعل فى مادة  
أمه ، إذ قيل : " أمهيت السكين : سقيته الماء . قال امرؤ القيس :

راشه من ريش ناهضة      ثم أمهأه على حجر

وفى نسخة أبى عبد الله ومطهر رحمهما الله : أمهت السكين ، ولم يأتيا  
بالبيت . وأورد أحيانا ضبطا غير ما فى الأصل ، قيل فى مادة قنس :  
" القنُس : أصل منبت كل شئ ومعتمده . قال العجاج " : فى قنس مجد فوق  
كل قنس وفى نسخة أبى عبد الله : هو قنُس ، بالفتح (١) ."

وأعنى بالخلافات فى التفسير خلافات لفظية تعدل عن بعض  
الألفاظ وتصحح بعضها الآخر . قيل فى مادة رق : " الرُق : العبودة .  
وفى نسخة أبى عبد الله : الرق : المالك " ، وفى مادة عرس : "

(١) وانظر قريس .

العُرْسَى : ضرب من الصبغ يشبه لون ابن عرس . وفى نسخة أبى  
عبد الله : الضُّبُع<sup>(١)</sup> .

وما وجدناه فى نسخة أبى عبد الله نجده فى نسخة الزوزنى غير أنها تزيد  
عنها بالإضافات التى أوردتها ولم تكن فى " النسخة الأصلية " للكاتب . فمثال  
تصحيح الزوزنى للكلمات التى يراد تفسيرها ما قيل فى مادة صمغ : " صمَّحَه  
الصيفُ : أى كاد يذيب دماغه من شدة الحر . وفى نسخة الزوزنى : ضَحَّمَه  
الصيف . وفى نسخة الحاتمي : ولاتقول : صمحه الصيف ، لأنه خطأ " وما  
قيل فى خم : " الخمخمة : ضرب من الأكل قبيح ، وبه سمي الخمام . وفى  
نسخة الزوزنى : الخمخام " .

ومثال ما أخذه عنها فى مجال التفسير قوله فى مادة حبض : " حَبَّضَ  
السهمُ : إذا لم يقع بالرمية وقصر دونها فوقع وقعا شديدا .. وفى نسخة  
الزوزنى : إذا وقع بالرمية وقعا غير شديد " .

ومثال زياداته ما قيل فى المعتل من الفاء مع الراء : " الفيرة : حُلْبَة يطبخ  
حتى إذا فارت فوارثها الغيث فى معصرة فصُنَّت ثم يُلقى عليه تمر ما تتحسأه  
المرأة النفساء . والفوارة : العين تجيش وتفور بمائها . وفى الكرسن فوارتان ، فى  
باطنهما غُدَّتَان من كل ذى لحم ، يقال : ماء الرجل يقع فى الكلية ثم فى  
الخصية ، وتلك الغدة لا تؤكل ، وهى فى لُحَيْمَة فى جوف لحم أحمر ، ولم يكن  
التشديد على الفوارة . كله فى نسخة الزوزنى<sup>(١)</sup> " .

وأشار الكاتب مرة واحدة إلى كل من نسختى أبى الوازع ، وابن خشفور .  
أما النسخة الأخيرة فذكرها فى صدد مادة غير موجودة فيها ، قال فى مادة  
ضغث : " الضُّغْث : اللوك بالأنياب والنواجذ . لم يكن فى نسخة الحاتمي ،

(٢) وانظر لفت ، وتن .

(١) وانظر نثل .

وكان بالتاء، ولا فى نسخة ابن خشفور . ولعل مطهرا غلط فحوّله من الحاشية إلى غير موضعه”.

وأما نسخة أبى الوازع فيبدو أنها لم تكن فى متناول يد الكاتب فى كل الأحوال ، أو كان اطلع عليها وأخذ منها بعض الفوائد التى كتبها على إحدى نسخه أو فى بعض أوراقه. وعندما أراد تدوين نسخته الأخيرة كان يردد النظر فيما دونّه ولا يستطيع الرجوع إلى نسخة أبى الوازع نفسها ، ولذلك لم يكثر من الإشارة إليها ، وعندما فعل صرح بأنه يعتمد على الظن. قال: فى مادة قليذم: ” القليذم: البئر الكثيرة الماء . وفى نسخة الحاتمي : القلندم . وأظنه فى نسخة أبى الوازع ، رحمهما الله”.

ويمكن أن نستنتج مما قاله الكاتب فى ضغث أن مطهرا لم يرو كتاب العين عن شيخ، وإنما عثر على نسخة منه، فدوّن عليها التعليقات التى أفاد الكاتب منها . وذلك هو الذى جعله يخلط بين التاء والثاء ، ولا يفتن إلى موضع الكلمة التى رآها فى ” الحاشية ”.

ونخرج من هذا بأنه من المحال أن يكون هذه النسخة من كتاب العين قرّيبة العهد بالليث بن المظفر، وبأن أبا معاذ المذكور فى أولها ليس آخر رواتها، بل أخذ كثيرون عنه إما مباشرة وإما عن نسخته، وصنع كثيرون منهم نسخا لأنفسهم بينها بعض الاختلاف والتفاوت . ثم جاء كاتب هذه النسخة - الذى لم يخلف لنا اسمه - وجمع ما استطاع من النسخ ، واعتمد عليها فى إخراج نسخته التى ندرسها .

وهنا يرد إلى الخاطر سؤال ملح : هل اكتفى هؤلاء الرواة بالرواية والتعليق أو أجروا على النسخة أشياء أخرى ربما لا نستطع أن نتنبه إليها .

أعتقد أن هذا السؤال تتعذر الإجابة عنه على وجه اليقين . ولكننا نعثر فى النسخة على مواضع أشار فيها الكاتب إلى بعض أصحاب هذه

النسخ دون أن يذكر نسخهم . وأكثر من فعل معه ذلك المكنى أبا عبد الله .

فقد أكثر من ذكره فى صدد الاعتراض على التفسير الموجود بالنسخة الأصلية من الكتاب . قيل فى مادة كشف : " الكَشُوف : الناقة التى يضربها الفحل وهى حامل ، وقد كَشَفَت كشافا . قال أبو عبد الله : الكشوف : الناقة التى يحمل عليها الفحل عندما تنتج أو عندما تخذج <sup>(١)</sup> ."

وذكره موضِّحا للتفسير الأصلى . قيل فى مادة عَق : " قال أبو عبد الله : أصل العَق الشق ، وإليه يرجع عقوق الوالدين وهو قطيعتهما ، لأن القطع والشق واحد <sup>(٢)</sup> ."

واعترض أبو عبد الله أحيانا على بعض الصيغ . قيل فى مادة بون : "البوان : من أعمدة الخباء عند الباب ، والجميع الأبونة والبوان ، قال أبو عبد الله : الأبوثة ، والجميع البون ، ولا أعرف البوان فى الأبونة معاً <sup>(٣)</sup> ."

وفى كثير من الأحيان كان أبو عبد الله يضيف صيغا وتفسير جديدة إلى ما فى الأصل . قيل فى مادة عفر : " قال أبو عبد الله : يقال : إن المعفر المفظوم شيئا بعد شىء ، يُحَبَس عنه اللبن للوقت الذى كان يرضع شيئا ثم يعاد بالرضاع ثم يزداد تأخيرا عن الوقت ، فلا تزال أمه به حتى يصبر عن الرضاع فتفظمه فطاما تاما <sup>(٤)</sup> ."

---

(١) وانظر مزر ، واللفيف من النون .

(٢) وانظر علط ، ويغث ، وزنم ، ومسب .

(٣) وانظر نصع .

(٤) وانظر عوج ، وبزل ، والمعتل من الزاء مع الميم .

وعَلَّقَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى الشَّوَاهِدِ الشَّعْرِيَّةِ بِالشَّرْحِ أَوْ التَّعْلِيلِ النَّحْوِي لِمَا فِيهَا مِنْ ظَوَاهِرٍ شَادَّةٍ. قِيلَ فِي مَادَّةِ سِرٍّ : " قَالَ :

بِزَجَاجَةٍ صَفْرَاءِ ذَاتِ أَسْرَةٍ      قَرَنْتُ بِأَزْهَرٍ فِي الشَّمَالِ مَقْدَمٌ

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْأَسْرَةُ فِي الشَّرَابِ ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فِي الزَّجَاجَةِ " وَفِي الْمَعْتَلِ مِنَ الْخَاءِ مَعَ الظَّاءِ تَعْلِيْقًا عَلَى قَوْلِهِ :

لَهَا مَتْنَتَانِ خَضَاتَا كَمَا      أَكْبَّ عَلَى سَاعِدِ النَّمْرِ

قِيلَ : " لَمَّا وَجَدُوا إِلَى حَرَكَةِ تَاءِ الْمُؤَنَّثِ سَبِيلًا أَقَامُوا الْحَرْفَ قَبْلَهُ ، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَتْرَكَ " .

وَشَارَكَ الزُّوزْنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْأُمُورِ . فَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ الْكَاتِبُ مَا أَرَادَ فِيهِ أَنْ يُوَضِّحَ التَّفْسِيرَ أَوْ يُؤَكِّدَهُ ، قِيلَ فِي سَهْرٍ : " السَّاهُورُ : مَنْ أَسْمَاءُ الْقَمَرِ . قَالَ الزُّوزْنِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ :

كَمَا السَّاهُورُ يَخْفَى مِنْهُ نَوْرٌ      إِلَى مِتْكَامِلِ الْبَدْرِ السَّنِيِّ

قَالَ : هُوَ الْقَمَرُ عَلَى لَيْلٍ تَمَامِهِ <sup>(١)</sup> .

وَنَقَلَ عَنْهُ اعْتِرَاضًا عَلَى الصَّيْغَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ . قِيلَ فِي تَبَلٍ : "تَوَبَّلْتُ الْقَدْرَ تَوَبَّلَةً : جَعَلْتُ فِيهِ التَّوَبَّلَ .. قَالَ الزُّوزْنِي : عَنِ الثَّقَةِ : تَبَّلْتُ <sup>(٢)</sup> " .

كَذَلِكَ نَسَبَ إِلَيْهِ زِيَادَاتٌ فِي الصَّيْغِ وَالتَّفَاسِيرِ . قِيلَ فِي شَقْدٍ : " وَقَالَ الزُّوزْنِي : أَشَقَدْتُ الرَّجُلَ : أَي طَرَدْتَهُ . وَشَقْدٌ هُوَ : أَي ذَهَبٌ . وَهُوَ الشَّقْدَانُ . وَأَنْشَدَ : هَذَا إِذَا غَضِبُوا عَلَيَّ وَأَشَقَدُونِي <sup>(٣)</sup> " .

(٢) وانظر عقل.

(٣) وانظر المعتل من السين مع النون .

وكل هذه الأمور التي نسبها الكاتب إلى أبي عبد الله والزوزنى وجدنا أمثلة لها مأخوذة من نسختها، ومن نسخ غيرها من الرواة. فغير بعيد أن يكون الكاتب نقلها من النسختين ، وأن إشاراته إلى الرجلين عنى بها النسختين ، وخاصة أنه لم يصرح أنه يروى عنهما رأساً أو يأخذ عنهما مشافهة .

ولما كان الكاتب أشار إلى أصحاب النسخ التي اعتمد عليها بأن ذكر ألقابهم أحيانا ، وكنامهم أحيانا ، فقد خشيت أن يكون بعض هذه الكنى والألقاب لشخص واحد.

وقد استطعت من الطريقة التي اتبعها الكاتب أن أطمئن إلى أن الحاتمي غير مطهر ، والزوزنى<sup>(١)</sup> ، وأبي عبد الله<sup>(٢)</sup> ، وأبي الوازع<sup>(٣)</sup> ، وابن خشفور<sup>(٤)</sup> ، وإلى أن مطهرا غير أبي عبد الله<sup>(٥)</sup> ، وابن خشفور . وبقي أمامي احتمال أن يكون مطهر هو المبكى أبا الوازع ، إذ لم يردا معا ، واحتمال أن يكون الزوزنى صاحب أية كنية مذكورة في الكتاب .

أما أصحاب الكنى جميعا فلم أستطع التعرف عليهم. وقام بهذه المحاولة جماعة قبلي فلم يوفقوا ، كما رأينا في أبي معاذ، بل إنى أشك في تحريف بعض هذه الكنى ، وخاصة ابن خشفور ، التي لم أقع على مثيل لها قبلا . وكذا الأمر بالنسبة إلى مطهر ، إذ لم أر أحدا من الذين أرخوا للغويين ذكر واحدا منهم بهذا الاسم .

---

(١) وانظر اللقيف من الفاء .

(٢) انظر موت ، ثقل ، صمغ .

(٣) انظر قريس .

(٤) انظر قليزم .

(٥) انظر ضغت .

(٦) انظر رثى ، أمه .

ويبقى الزوزوني والحاتمي . وأولهما منسوب إلى زوزون ، وهي كورة واسعة بين نيسابور وهراة ، والثاني إلى حاتم اسم رجل ، ويمكن أن تنطبق هاتان النسبتان على كثيرين .

ولكن تبادر إلى ذهني أن الزوزوني هو أبو عبد الله الحسين بن علي الحسيني، شارح المعلقات ، والمتوفى في سنة ٤٨٦ هـ. فإن هذا يحل مسألتين: أولهما خاصة بالكنية ، والثانية باللقب، إذ يكون الملقب الزوزني هو المكنى أبا عبد الله ، ويكون كاتب العين أراد بهما رجلا واحدا، أشار إليه أحيانا باسمه وأحيانا بلقبه .

ويدعم هذا الرأي أن ما نسبه الكاتب إلى أبي عبد الله قريب مما نسبه إلى الزوزني، وأن الزوزني المشهور له مشاركة في اللغة إذ ألف كتاب المصادر ، وترجمان القرآن ، وشرح بائية ذي الرمة ، إلى جانب المعلقات .

ولكن الرجل لا يعرف كثيرا من حياته . ولذلك يبقى هذا الرأي مجرد احتمال . بل يضعف منه عندي أن الكتب المنسوبة إليه لاتدل على كبير جهد في مشاركته اللغوية . فالمصادر والترجمان يعنيان بإيراد اللفظ ومقابله الفارسي، فهما للقارئ الفارسي. ولست في حاجة إلى الحديث عن شرحه للمعلقات ، لكثرة الرجوع إليه لبساطته وقرب تناوله ، وذلك ما أريد بما قلت .

أضيف إلى ذلك أن هناك زوزنيا آخر ، هو أبو جعفر محمد بن إسحاق بن علي القاضي البحائي ، المتوفى في سنة ٤٦٣ هـ ، اشتهر بنسخ الكتب . قال مترجمه عبد الغافر بن إسماعيل عنه<sup>(١)</sup> : أظهر النسخ بين الناس .. وكان ينسخ كتب الأدب بخط مقروء صحيح أحسن النسخ . ولقد رأيت نسخة من كتاب يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي في خمس مجلدات بخطه المليح ، بيعت بثلاثين دينارا نيسابورية ، وكانت تساوي أكثر من ذلك . ولقد كتب نسخة من

(١) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٤٠٩ .

غريب الحديث لأبى سليمان الخطابي ، وقرأها على جدى الشيخ عد الغافر بن محمد الفارسي قراءة سماع ، وعلى الحاكم الإمام أبى سعد بن دوست قراءة صحيح وإتقان ، أقطع على الله تعالى أن لم يبق من ذلك الكتاب نسخة أبين ولا أمْلح منها ..” .

فهو رجل يشتغل بالنسخ ، ويخص بذلك كتب الأدب كاليقيمة واللغة كالغريب ، ثم يقرأ ما نسخ أو بعضه على العلماء . وكل ذلك يرجح كفته ، ويقرب بينه وبين الزوزنى المذكور فى العين ، ويجعل الزوزنى وأبا عبد الله رجلين لا واحدا .

ويبدو أنه لا صعوبة فى التعرف على الحاتمي ، على الرغم من كثرة الذين يحملون هذا اللقب . فأشهرهم فى المجال اللغوى والأدبى هو أبو على محمد بن الحسن بن المظفر، المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، والذي عُرفَ بنزاعه مع المتنبي . ولا يذكر أحد أنه نسخ كتاب العين أو اشتغل بالنسخ . ولكن كل من ترجم له ذكر عنايته باللغة .

فقد وصف هو نفسه فى كتابه ” الهلجاجة فى صناعة الشعر<sup>(١)</sup> ” : ” ووُزنت فى مجلسه [يريد مجلس سيف الدولة ] تكرمه وإدناءً وتسوية فى الرتبة - ولم تُسفرَ حَدَاى عن عذاريهما - بأبى على الفارسي ، وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبى عد الله بن خالويه ، وكان له السهم الفائز فى علوم العربية ، تصرفا فى أنواعه وتوسعا فى معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبى الطيب اللغوى ، وكان - كما قيل - حثف الكلمة الشرود حفظا وتيقظا” .

(١) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٥٠٣ .

وَدَعَى أَنَّهُ لَمَّا جَادَلَ الْمُتَنَبِّيَ فِي بَعْضِ شَعْرِهِ ، وَعَمِدَ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أخطاء لغوية ، تَفَوَّقَ عَلَيْهِ حَتَّى اضْطَرَّ الْمُتَنَبِّيُّ إِلَى الإِقْرَارِ فَأَعْلَنَ : " يَا هَذَا ، مَسْلَمَةٌ إِلَيْكَ اللُّغَةُ " .<sup>(٢)</sup> أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الحَاتِمِيَّ أَلْفَ كِتَابِيَيْنِ فِي العَرَبِيَّةِ .

كُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى فِرْطِ عَنَايَةِ الرَّجُلِ بِاللُّغَةِ ، وَعَلَى إِحْسَاسِهِ هُوَ بِالمَكَانَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا فِيهَا ، وَافْتِخَارِهِ بِذَلِكَ ، إِذْ كَانَ كُلُّ مَا رَوَيْتَهُ مِنْ قَوْلِهِ . وَلَا يَهْمُنِي فِيهِ مَدَى صِدْقِهِ ، إِذْ أَهْمِيَّتُهُ عِنْدِي فِي دَلَالَتِهِ عَلَى اهْتِمَامِ الرَّجُلِ بِاللُّغَةِ .

وَأَهْمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ اعْتَمَدَ عَلَى الخَلِيلِ - صَاحِبِ العَيْنِ - فِي تَحْصِيلِهِ اللُّغَوِيَّ ، وَرَوَى عَنْهُ . قَالَ فِي مَنَازِرَتِهِ لِلْمُتَنَبِّيِّ أَيْضًا : " وَالقُدَّاسُ : الجِمَّانُ ، حَكَى ذَلِكَ الخَلِيلُ ، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ : " كَنَظْمٌ سَلَكَ مَنقَطِعَهُ " . وَقَدْ أَخَذَ هَذَا القَوْلَ مِنْ كِتَابِ العَيْنِ ، الَّذِي قِيلَ فِيهِ : " القُدَّاسُ : الجِمَّانُ مِنْ فِضَّةٍ ، قَالَ : كَنَظْمٌ قُدَّاسٌ سَلَكَ مَنقَطِعَهُ يَصِفُ الدَّمُوعَ " . فَالعِبَارَةُ أوردَهَا نَصًا ، مَعَ حَذْفِ قَصِيرٍ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنَ العَيْنِ ، الأَمْرُ الَّذِي يَرْجَحُ كَوْنَ النِّسْخَةِ لَهُ .

فَإِذَا صَحَّ لَنَا هَذَا ، كَانَ الأَسْتِنْتَاجُ الطَّبِيعِيُّ أَنَّ السَّنَدَ المَوْجُودَ فِي مَقْدِمَةِ النِّسْخَةِ غَيْرِ صَاحِبِهَا ، أَوْ غَيْرِ تَامٍ . فَإِنْ أَقْدَمَ نَسْخَةٌ عَرَفْنَا صَاحِبَهَا مِنَ النِّسْخِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الكَاتِبُ هِيَ نَسْخَةُ الحَاتِمِيَّ ، المِتَوَفَى فِي ٣٨٨ هـ ، أَيْ المَعَاوِرَ لِأَحْمَدَ بنِ فَارِسِ اللُّغَوِيِّ المَشْهُورِ ، المِتَوَفَى حِوَالِي سَنَةِ ٣٩٥ هـ ، فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ ابْنَ فَارِسٍ رَوَى العَيْنَ عَنِ اللَيْثِ ، فَفَصَّلَ بَيْنَهُمَا أَرْبَعَةَ رِوَاةٍ<sup>(١)</sup> ، وَأَنَّ ابْنَ دَرَسْتَوِيَةَ المِتَوَفَى سَنَةَ

(٢) ياقوت : معجم الأديباء ٦ : ٥٠٧ .

(١) المقاييس ١ : ٣ .

٣٤٧ هـ وأبا العباس أحمد بن محمد المعروف بابن ولاد المتوفى فى  
٣٣٢ هـ روى العين عن الليث ، ففصل بين كل واحد والليث ثلاثة  
رواة<sup>(٢)</sup> - إذا عرفنا هذا تبين لنا بصورة قاطعة - أنه من المحال أن  
يروى الحاتمي نسخته عن الليث فلا يفصل بينهما غير أبى معاذ  
المذكور فى مفتاح النسخة ، وأنه لا بد أن يكون بينهما أربعة رواة على  
الأقل . فالسند المذكور إذن مبتر بترا شوه سند النسخة وجعل من  
المتعذر علينا التعرف على رجاله .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان من المحتم أن يفصل بين الزوزنى - سواء كان  
أبا جعفر أو أبا عبد الله - نحو ستة رواة .

وإذا كان لنا أن نطمئن إلى كل ما قدمت ، كانت النتيجة التالية المحتممة :  
أن كاتب النسخة التى بين أيدينا من العين ، واعتمد فيها على النسخ التى  
أشار إليها ، لا بد أنه كان يعيش فى أواخر القرن الخامس أو ما بعده .

---

(٢) ابن النديم : الفهرست ٤٣ . السيوطى : المزهرة ١ : ٤٦ . حسين نصار: المعجم العربى  
٢٥٧ .

## فائت تاج العروس

عرفت اللغة العربية المعاجم منذ القرن الهجرى الثانى ، أعنى الكتب التى تحاول أن تجمع اللغة كلها مثل العين للخليل بن أحمد، أو الكتب التى تحاول أن تجمع الكلمات التى تنتمى لموضوع معين مثل النبات للأصمعى، أو الكتب التى تحاول أن تجمع الكلمات من صنف معين مثل الأفعال لابن القطاع ، أو الكلمات التى تخضع لظاهرة معينة مثل يفعل للصغنى ، وما شابه ذلك .

وكان مما عرفت الكتب التى لا تتعدى الصفحات المعدودات مثل آخر الكتب التى ذكرتها ، والكتب التى اشتملت على عدد هائل من المجلدات. فقد ذكر الذاكرون أن أحمد بن أبان بن سيد الأندلسى "

صنف ( العالم فى اللغة ) ، مئة مجلد، مرتبا على الأجناس. بدأ فيه بالفلك ، وختم بالذرة ”.

والأمر الذى يؤسف له أن كثيرا من المعاجم مفقودة. ولم يصل إلينا منها غير اسمها مثل الجامع لابن القزاز، أو وصل إلينا قطعة منها وفقدت بقيتها مثل البارع للقالى.

ولا يخفف من هذا الأسى إلا بقاء ما بقى من المعاجم، وعثورنا من وقت لآخر على معجم جديد، أو تحقيق ما كان ما يزال مخطوطا، وطبعه جزءا بعد جزء.

ولا نشك أن أكبر المعاجم التى طبعناها هو تاج العروس للزبيدي، يليه لسان العرب لابن منظور. ولا نشك أن التاج يحتوى على أكبر عدد يحتوى عليه معجم عربى من مفردات اللغة العربية دون استثناء ، ولكنها لم تشتمل على جميع مفرداتها بسبب المعاجم التى فقدت والكتب اللغوية التى لم يرجع إليها التاج ومصادره وتأخذ ما فيها.

والدليل اليقيني على ذلك المفردات التى استخرجها الأستاذان أحمد محمد شاکر وعبد السلام محمد هارون من ديوان المفضليات وحده، وسميها ( الحروف التى لم تذكر فى المعاجم ) . وألحقها بها .

وفى أثناء تحقيقى الجزء الخامس من طبعة التاج التى تصدرها دولة الكويت، عثرت على مجموعة من المفردات التى لم يتحدث عنها الزبيدي فى موادها وإن كانت قد وردت عرضا فى مواد أخرى أو فى بعض المصادر اللغوية الأخرى. فرأيت أن أجمعها وأستدرکها عليها : فكانت هذه القائمة التى بين أيدينا.

شمرج شمرج الرجل: إذا عمل عملا غير محکم (الجمهرة ٢: ٣٢٣: ٣)

أرض مشمرجة : بعيدة (الجمهرة ٢: ٣٢٣: ٣)

- شمرجت الثوب شمرجة: إذا باعدت بين  
غرزته فى الخياطة . والمصدر شمرجة )  
وشمراج (
- (الجمهرة ٢: ٣٢٣: ٣)
- شنج : شَنَجُ : تقبُّض
- ( الأساس : ١٠٧ : ١ )
- صوج : الصاج : زعموا فى بعض اللغات : الصلج .
- (الجمهرة ٢: ٢٢٥: ٣)
- طعج : الطعج: الدَّفْع . وأكثر ما يستعمل فى الكناية  
عن النكاح ، يقال : طَعَجَهَا يَطْعُجُهَا طَعْجًا .
- (الجمهرة ٢: ١٠٠: ٢)
- عرج : ويقال: عَرَجُوا بنا فى هذا المكان: أى انزلوا بنا فيه .
- (الجمهرة ٢ : ٨١ )
- ومأى عليه عُرْجَة (ولا مَعْرَجَة) [أى مقام ]
- ( المقاييس ٤: ٣٠٢ )
- عسلج : يقال: شاب عُسْلُجٌ (وعُسْلُوجٌ) : إذا كان ناعما .
- (الجمهرة ٢: ١٠٨: ١)
- عُسْلُوجٌ . وهو العنن الناعم ( ينبت فى الظل )
- (الجمهرة ٣: ٣٨٣: ١)
- عِفْضِجٌ... وهو مثل الجِفْضِجِ ، وهو الضخم
- (الجمهرة ٣: ٣٢٦: ١ وانظر
- العريض من الرجال القليل الغناء .
- (١: ٣٢١: ٣/ ٣: ٣٨٦: ١)
- عنج : قال ابن الأعرابى : عَنَجْتُ الدلو وأَعْنَجْتُهَا
- ( المقاييس ٤: ١٥٢ )
- استقام عُنْجُوجُ القوم : أى سَنَّهُم
- ( المقاييس ٤: ١٥٢ )
- وعسجت كلاما فما عَجْتُ به . وكذلك شربت
- دواء فما عجت : أى ما انتفعت .
- (الجمهرة ٢: ١٠٥: ٢)
- وما عَجْتُ من كلامه بشيء: أى ما باليت ولا
- (المحكم: عوج ٢: ٢٠٤ /
- اللسان: عوج/ انظر التاج:
- انتفعت، وقد ذكر عجت فى الياء .
- عيج)
- والعاج : عظم الفيل ( الواحدة عاجة )
- (الصاح واللسان: عوج)

- عهج قال الأصمعي : العوهج : المخططة العنق. (المقاييس ٤ : ١٦٧ )
- غلج غلج الحمارُ والفرس غلجا ( وغلجا ) وغلجانا : (الجمهرة ٢ : ١٠٦ : ١ )  
إذا عدا عدوا شديدا.
- غمج ويقولون للرجل لا يستقيم خُلُقُه : غَمِج . (المقاييس ٤ : ٣٩٢)
- غنج قال أبو بكر: سمعت عبد الرحمن بن أخي الأصمعي يقول: عَنَجَ بعميره، وغنجه، وغيفه: إذا عطفه.
- غوچ وربما سموا كل لَيْنٍ: غَوَجا. (المقاييس ٤ : ٤٠١)
- فحج الفَحْجُ - بالتسكين : مَشِيَّةُ الأَفْحَجِ. (الصحاح واللسان: فحج)
- فدج شاةٌ مُفَوِّدَجَةٌ: : ينتصب قرناها ويلتقي طرفاهما. (المقاييس ٤ : ٤٨٤ / انظر المجمل)
- فرج زعم الأخفش أنه يقال للقَصَّار: التَّفْرِجُ، والجمع التفاريج. (الجمهرة ٣ : ٣١٤ : ٢ / اللسان / فرج)
- نيج النابجى: ضرب أسود من تمر البحرين. (الجمهرة ٢ : ٣٨٢ : ١ ، ٢ : ٣٠٦ : ٣)
- لجج قوله: أنشده ابن الأعرابي: \* ذَلُّوْ عِرَاكٍ لَجِّ بِي مَنِيئُهَا \*  
فسره فقال: لج بى: أى ابتلى بى. ويجوز عندى أن يريد ابتليت أنا به، فقلّب.
- لهج لهجت بالشىء ألَهَجَ لَهْجَا ( ولَهْجَا ): إذا غربت به. (الجمهرة ٢ : ١١٤)

( اللسان )	النَّاجُ والنَّجُّجُ : السرعة .	ناج
(اللسان)	ناج الأمر : أخره	
(الجمهرة ٣: ٤٧٦: ٢)	المِنْفَجَةُ : القَوْسُ الَّتِي يَنْدَفُ بِهَا الْقَطَنُ ، وَوْتَرَاهَا الْكَسِيلُ ، وَأَنْشَدَ : هِ وَابِغْ لَهُ مِئْفَجَةٌ وَكَسِيلَاهُ	نفج
(اللسان: نهج - النهاية لابن الأثير: نهج)	النَّهْجُ : النَّهْجُ : الربو .	نهج
( الأساس : نهج )	انْتَهَجَ الطَّرِيقَ : استبانهُ .	
( الجمهرة )	النَّهْجُ : الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ . وَالْجَمْعُ نُهُوجٌ (ونهاج)	
	هَبِجَ وَجْهَ الرَّجُلِ فَهُوَ هَبِجٌ : انْتَفَخَ وَتَقَبَّضَ ، قال ابن مقبل :	هبج
( اللسان والجمهرة )	لا سافرُ النَّيُّ مَدْخُولٌ وَلَا هَبِجٌ	
( ٢١٦ : ١ )	عارى العظام عليه الودع منظوم	
( المقاييس ٦ : ٢٨ )	هَبِجَتِ النَّاقَةُ هَبْجًا : ورم ضرعها	
( الجمهرة ٢: ١١٣ )	الْوَلُوجُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهَا .	ولج
(الجمهرة ٣: ٤٧٠: ١)	الهِجَاجُ : مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ مِنَ النَّاسِ .	هيج
( الجمهرة ٢: ٩٩: ١ )	التَهْجُجُ : التَّوَقُّفُ ( وشاهد عليه )	
( المقاييس ٦ : ٤٤ )	أَهْدَجَ الظُّلْمُ : مَشَى فِي ارْتِعَاشٍ .	هدج
( المقاييس ٦ : ٤٤ )	هَوْدَجَتِ النَّاقَةُ : إِذَا ارْتَفَعَ سَنَامُهَا كَأَنَّهُ الهُودَجُ .	

هَرَج	هَرَجَ النُّومَ يَهْرِجُهُ : أَكْثَرَهُ ( وشاهد عليه )	( اللسان : هرج )
هوج	أهُوجَه : وجدّه أهوج .	( اللسان : هوج )
هيج	الهاجة : خرزة صغيرة تشد في الأذن .	(الجمهرة ٢: ١١٩: ١)
يرج	التهديب: اليازجان: كأنه فارسي، وهو من حلى اليدين.	( اللسان : يرج )
أنح	أنح ( يأنح ) ويأنح : مثل يزخر سواء .	( المقاييس ١: ١٤٤ )
يدح	ابتدحت الشيء: إذا ابتدأت به من تلقاء نفسك.	(المقاييس ١: ٢١٥)
تسح	التُسْحَة: الحَرَد والغضب ، عن كراع . قال ( اللسان: تسح / ابن سيده : ولا أحقها .	والمحكم)
ترج	أترحه : أحزنه	( الأساس : ترح )
جبح	جُبوح : جمع جَبِح ، وهي خلية العسل.	( اللسان )
جحح	الجَحَح : من قولهم : أَجَحَّت السَّبْعَةُ إجحاجا .	(الجمهرة ٣: ١٨٧: ١)
جنح	اجْتَنَحْتُهُ : أى أَمَلْتُهُ ، فَجَنَحَ : أى مال .	( اللسان : جنح )
حرج	حَرَجَ الرَّجْلُ : [ أولع بالأحراج ]	( اللسان : حرج )
دحح	رجل دَحِج : قصير غليظ البطن .	( اللسان : دحح )
ذبح	الْمَذْبَحُ : ما بين أصل الفوق وبين الريش.	( اللسان : ذبح )
	الذُّبْحُ : نُور أحمر .	( اللسان : ذبح )
	وحيا الله هذه الذُّبْحَة : أى هذه الطَّلعة .	( اللسان : ذبح )

(الجمهرة ١: ٢١٧)

فُعَلٌ يُجْمَعُ عَلَى فُعْلَةٍ مِثْلَ دُبْحٍ وَدُبْحَةٍ ، وَهُوَ نَبْتٌ .

(الجمهرة ٣: ٥١١)

رَجَحَ الشَّيْءُ عَلَى الشَّيْءِ رَجُوحًا ( وَرَجَاحًا ) رَجَحَ

(الجمهرة ٣: ٤٠٢)

لَيْلٌ مُرْجَجِنٌ : كَأَنَّهُ مِنْ كَثْرَةِ ظَلْمَتِهِ لَا يَتَحَرَّكُ .

(الأساس : رَجَحَ )

(الأساس : رَجَحَ )

وَأَرْجَحَنَ : مَالٌ وَوَقَعَ بِمِرَّةٍ .

(اللسان : رُجِحَ )

الرِّزْجَةُ : الخَشْبَةُ الَّتِي يُرْفَعُ بِهَا [السَّاقَطُ مِنَ العَنْبِ] .

(اللسان : رُوحَ )

الرُّوْحُ وَالرِّوَاوحُ : الَّذِي يُدْرَى بِهِ الطَّعَامُ فِي الرِّيحِ

أَبُو عَبِيدٍ : إِذَا طَالَ النَّبْتُ قَلِيلٌ : قَدْ تَرَوَّحْتَ

(اللسان : رُوحَ )

البَقُولُ فَهِيَ مُتَرَوِّحَةٌ

(الأساس : رُوحَ )

رَوْحٌ : صَلَّى التَّرَاوْحَ

(الأساس : رُوحَ )

اسْتَرَوْحْتُ إِلَى حَدِيثِهِ

(الأساس : زَحَحَ )

مَالِي عَنْكَ مُتَزَحِّحٌ

(الأساس : سَبَّحَ )

سَبَّحْتُ اللَّهَ وَ ( سَبَّحْتُ لَهُ )

(الجمهرة ٢: ١٣٢)

سَرَّحْتُ العَبْدَ : إِذَا أَعْتَقْتَهُ ، لُغَةٌ يَمَانِيَّةٌ

قَالَ أَبُو زَيْدٍ : تَقُولُ العَرَبُ : أَكَلْتُ لُقْمَةً

فَسَبَّحْتُ حَلْقِي : أَيِ قَطْعَتِهِ ، وَسَرَّحْتَهُ

(الجمهرة ٣: ٤٦٣)

بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ ، وَالتَّخْفِيفُ أَجْوَدُ .

سَرَّحَ الشَّاعِرُ الشُّعْرَ ، قَالَ جَرِيرٌ :

(الأساس : سَرَّحَ )

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِي القَوَافِي ۚ فَلَاعِيَابَهُنَّ وَلَا اجْتِلَابًا

(الجمهرة: ٣: ٣٨٠: ١)	سُلطوح: جبل أملس	سلطح
(الجمهرة: ٣: ٣٩٢: ١)	سُلَاطح: أرض واسعة وربما سُمى الماء السائح على الأرض سلاطحا	
(المقاييس ٣: ٢٥٦)	الشُّوَدَح: السريعة [من النوق]	شدح
(الجمهرة: ٢: ١٢٣: ١)	صَدَح الطائر يصدح صدحا ( وصدوحا) وصداحا: إذا صَوَّت	صدح
(الصحاح واللسان: صرح)	تقول: جاء بنو تميم صَريحَةً: إذا لم يخالطهم غيرهم .	صرح
(اللسان : صرح)	الصَّرْح: الأرض الملتئة	
	رجل صريح وقومٌ ( صَريح ) وصرحاء أيضا، وهو أعلى اللغتين	
(الجمهرة: ٢: ٤٢٨: ٣)		
(الجمهرة : ٢: ٤٠٧)	الصُّرَاح: بيت العزة فى السماء .	
(المقاييس ٣: ٣٥٠)	الصُّرْدَاح والصُّرْدَح : وهى الناقة الصلبة. وانظر صرطح فى اللسان	صرح
(الجمهرة ٢: ٤٠٧)	أبدي لى فلانُ صفحته : إذا أمكنك من نفسه فى خصومة أو حرب.	صفح
	وأصفحت عن الأمر إصفاحا: إذا تركته ، مثل قولهم : أضربت عنه إضرابا	
(الجمهرة)		
(الجمهرة ٢: ١٦٦: ١)	الصُّوَّاح: عَرَّق الخيل: ولانعرف له فعلا يتصرف.	صوح
(الجمهرة ١: ١٣٧: ٢)	الصُّحْفَم والصُّحْفَاح ( والصُّحَاضِم): وهو	ضحح

الماء المتفرق على وجه الأرض.

طلح (الجمهرة ١: ١٣٧: ٢) إبِلٌ ( طَلْحَى ) و طَلْحَى : إذا اشتكت بطونها  
عن أكل الطَّلْح .

طلّح (المقاييس ٣: ٤٥٧) الطَّلْنَح : وهو السمين .

عرر (العين ١ : ٩٧ ) رجل معرور : وقع العُرْفى إبله .

قال أبو زيد : يقال: أَعَرَ فلانٌ : إذا أصاب  
إبله العُرّ.

(المقاييس ٤ : ٣٤)

العُرّة: الشدة فى الحرب، والاسم منه العُرار  
والعُرار

(العين ١ : ٩٧)

فى مثل : نَحَّ الجرباء عن العارّة : . قال :  
والجرباء: التى عَمَّها الجرب. والعارّة : التى  
قد بدأ فيها ذلك، فكأن رجلا أراد أن يبعد  
بإبله الجرباء عن العارّة، فقال صاحبه مَبَكَّتَا  
له بذلك، أى لِمَ يُنَحِّيهَا وكلُّهَا أجرب.

(المقاييس ٤ : ٣٣)

ويقال : ناقلة معرورة : قد مَسَّتْ ضرعتها  
نجاسة فيفسد لبنها.

(المقاييس ٤ : ٣٣)

قال القراء: العُرْعرة: المعرفة من كل دابة .

تقول : عَرَعَرَت اللحم عن العظم وشرشرتها  
بمعنى . قالوا : والعَرْعرة : المعالجة للشئ  
بمجلة إذا كان الشئ يعسرُ علاجه .

(المقاييس ٤ : ٣٨)

عسرت الناقة بذنبتها : إذا شالت به، فهى  
عسر

(الجمهرة ٢: ٣٣١)

عاسر ومُعسِر

(الجمهرة ٣: ٢٣٨)

عسرتُ الأمرَ وأعسرتُهُ.

(الجمهرة ٣: ٤٤٦)

ناقاة عاسر وعسير: وهى التى اعتسرت  
فركبت ولما تُرض

ولكن الأزهرى قال فى التهذيب ٢: ٨٢ :  
العسير : الناقاة التى ركبت قبل تذليلها، وأما  
العاسرة من النوق فهى التى إذا عدت رفعت  
ذنبها، وتفعّل ذلك من نشاطها، والذئب يفعل  
ذلك .

العُسرى: هى الشّمال ، وإنما سُمّيت عُسرى  
لأنه يتعسر عليها ما يتيسر على اليمين، فأما  
تسميتهم إياها يُسرى فيرى أنه على طريقة  
التفاضل، كما يقال للبيداء مفازة وكما يقال  
للديغ سليم.

(المقاييس ٤: ٣٢٠)

(العين ١: ٢٨٨)

عشر العُشارى من النبات : ما بلغ طولُه أربعة  
أذرع. [أخشى أن تكون محرفة عن عشرة  
أذرع ]

(الجمهرة ٢: ٣٤٣)

عُشر الجزارُ خيرة اللحم: إذا أخذ منه  
أطايبه.

أنشد : ه لا يخلص الدهر خليل عُشراه  
عُشرا: يعنى المعاشرة ، يقول : من ذاق  
الضامد واعتاده لم يخلص معاشرة صديق أبدا.

(الجمهرة ٣: ٤٧٨)

عصر قال بعضهم: يعنى بالعَصْر جمع الإعصار : (العين ١: ٣٤٦)  
أى الغبار.

[أخشى أن تكون الإحصار محرفة عن العصار]

بغير معصور : قد عَصَرَهُ السَّعْرُ عَصْرًا.  
ويقال فى قول القائل :

أَعَشَى رَأَيْتَ الرِّمْحَ أَوْ هُوَ مَبْصَرٌ لَأَسْتَهِكُمُ إِذْ تَطْرَحُونَ الْمَعَاصِرَا

إن المعاصر : العمائم . وقالوا : هى ثياب سود.  
والصحيح من ذلك أن المعاصر الدروع ، مأخوذ من  
العَصْرُ ، لأنه يُقَصَّرُ بها.

(المقاييس ٤ : ٣٤٥)

عضمر ناقة عَيْضَمُور : مُسِنَّةٌ وفيها صلابة . (الجمهرة ٣ : ٤٠٣)

عفر عُفَارِيَّةٌ .. وهو الشعر النابت وسط الرأس الذى  
يَجْتَنِبُ إِذَا اقشعر الإنسان ، وأكثر ما يكون  
ذلك عند الفزع.

(الجمهرة ٣ : ٤٧٨)

والعفار: عفار الكلاً : ثلاث بقلات يبقين  
حتى ينصرم البقل قال: وهن السعدانة  
والحلبة والقُطبة.

فأما ما رواه أبو عبيدة أن العَفْر : بذر الناس  
الحبوب، فيقولون : عَفَرُوا : أى بذروا،  
فيجوز أن يكون من هذا ، لأن ذلك يلتقى فى  
التراب.

(المقاييس ٤ : ٦٤)

وقال بعضهم : العُفْرُ : جمع العُفَارِ من

الشجر الذى ذكرناه . وأنشدوا:

- قد كان فى هاشمٍ فى بيتٍ محضيمٍ وأرى الزنا د إذا ما أصلد العُفْر (المقاييس ٤: ٦٥)
- وعَفْرٌ قِرْنُهُ وعافَرَهُ فالزقه بالعَفْر: أى صارعه (الأساس ٢: ١٢٨)
- وما هو إلا عَفْرِيَت من العفاريَت، وقد استعفر. (الأساس ٢: ١٢٩)
- عقر العَقَّار: الذى يعنّف بالإبل لا يرفُق بها (المقاييس ٤: ٩١)
- فى أقتابها فتُدبرها.
- سرح مِعْقَرٍ وعَقَّارٍ ومعقار. (المقاييس ٤: ٩٤)
- عمر عَمِرَ الرجلُ بالكسر يَعمُرُ عَمْرًا وعُمْرًا، على غير قياس لأن قياس مصدره التحريك.
- وتقول: بعمرِكَ هل كان كذا ، (الأساس)
- العُمرة: طاعة الله عز وجل - التهذيب (اللسان)
- يقال : اعتمر الرجل : إذا أهْلُ بعمرته ، (المقاييس: عمر: ٤: ١٤١)
- وذلك رفعه صوته بالتلبية للعمرة .
- عور عار الدابةُ يَعيْرُ : إذا ضلَّ (الجمهرة ٣: ٢٥١)
- عهر ويقولون - وهو من المشكوك فيه - إن العامر المسترخى الكسلان .
- عبر تَعَبَّرَت المرأةُ الشيخَ : أخذتُ ببقيةِ مائه . (المقاييس: عبر: ٤: ٤٠٨)
- عمر وقد عَمَّرَ بالضم يَعمُرُ عَمارةً [من العمر بمعنى (الصحاح : عمر.)
- [الفر]
- العُمرة : حيرة الكفار (التهذيب)
- المعروف فى العامر : المعاش الذى أهله بخير . (التهذيب)

(التهديب)	التعمر : أقل الشرب .	
(التهديب ١٥ : ٢٤٨)	ويقال للحم المتن : فاز المتن ، ويزابيع المتن.	فأر
(التهديب )	وقال غيره [غير المؤرج] : فَرِيرٌ للواحد، وجمعه فُرَارٌ.. قال ابن الأعرابي : فرارُ جمع فُرارة ، وهى الخرفان	فرر
(المقاييس ٤ : ٤١٩)	أَفَرُّ المَهْرُ : إذا دنا أن يُفَرَّ جَدْعًا.	
(اللسان )	وقال الأزهرى : هى الفَقْر - بالضم أيضا : جمع فُقُرة ، وهى الأمر العظيم الشنيع - النهاية لابن الأثير ٣ : ٤٦٣.	فقر
(النهاية لابن الأثير ٣ : ٤٦٣)	وفيه : " عاد الجراء بن مالك فى فقارة من أصحابه " أى فِقْر.	
(اللسان فق)	الفقير: البئر العتيقة وجمعها فُقُر .	
(اللسان فق)	الفَقَار : ما وقع على أنف البعير الفقير من الجرير .	
(الصاحح واللسان : قتر)	القَتْر : جمع القَتْرَة ، وهى القَبْرَة .	قتر
(الأساس ٢ : ٢٣٧ ، المقاييس ٥ : ٧٠)	أَقْدَرْتُ الشئ : وجدته قدرا.	قذر
(النهاية لابن الأثير واللسان).	القَطارة والقِطَار : أن تشد الإبل على نسق واحد، واحدا خلف واحد.	قطر
(المحكم واللسان )	قصعة قَعْرَى وقَعيرة : فيها ما يغطى قَعْرَهَا، والجمع قَعْرَى.	قعر

(التهديب ٩: ١٢١: ١)	<p>قفر قال ابن الأعرابي : نبتٌ قُفْرٌ : لا صَيُورَ له  في البطن. قال وسئل أعرابي عن الوشيح، وهو  اسم بقلة : فقال: قذر قفير: أي لا خير فيه.</p>
(المقاييس ٥: ١١٦)	<p>ققدر القَقْنَدِر: الشيخ . والقَقْنَدِر: اللثيم الفاحش.</p>
(المقاييس ٥: ٢٥)	<p>قمر قَمِر التَّمْر وأقمر: إذا ضربه السبرد فذهبت  حلاوته قبل أن ينضج.</p>
(الأساس ٢: ٢٨٣)	<p>قور قَوْرَت دَارُهُ قَوْرًا: اتسعت.</p>
(الأساس ٢: ٢٨٣)	<p>تَقَوَّر: تَقَوَّض.</p>

## وسائل الإعلام واللغة

أعتقد أنني لا أحميد عن الحق، عندما أزمع أن الإنسان المثقف- في العصر الحديث - لا يعطى اللغة قدرها الذي تستحقه، على حن يفعل ذلك الإنسان العادي ، بل إنه يعطيها فوق هذا القدر .

ولو أن هذا الإنسان المثقف تأنى قليلا، وتأمل قليلا، لتبين - دون عون من أحد - الخطأ الذى هو واقع فيه . ولو أكثر التأنى والتأمل، تبين - دون شك - فداحة هذا الخطأ، فقد كان الإنسان البدائى يؤمن إيمانا لا يخالطه أدنى شك بأن الكلمة ومدلولها شىء واحد، و بالعبرة الشائعة: الاسم هو المسمى، ولا يمكن الفصل بينهما .

وكان هذا الإيمان أحد أركان السحر القديم .

وأعتقد أننى لا أبعد عن الحق، عندما أزمع أن هذا الإيمان مازال موجودا إلى اليوم .

يتجلى فى الصدود عن امتهان بعض الأسماء التى يحمل لها الإنسان مهابة خاصة ، بكثرة الاستعمال، فيلجأ إلى التكنية . فكما لجأ المصرى القديم بالتكنية عن الملك بالفرعون ( برعو أى القصر الفخم)، والعثمانى عن السلطان فى العصور المتأخرة بالسباب العالى ، لجأ المصرى - قبل الثورة - بالتكنية عن الملك بالسراية، وعن رئيس الجمهورية بعد الثورة بالسلطات والجهات المسئولة .

ويتجلى فى كراهة استخدام أسماء بعض الأمراض الخطيرة أو المستعصية كالطاعون والسرطان والإيدز والحميات ، والتعبير عنها بعبارات شتى ، مثل الداء الأسود، والمرض الخبيث، والورم . ( والى ما يتسماش )، لأن القوم يمتقدون أن من يلفظ بأسماء هذه الأمراض يصاب لها .

ويتجلى فى تجنب التللفظ بالأسماء التى تخدش الحياء أو الأعراف الاجتماعية وما إليها . ولذلك نرى اللغة فى هذا الجانب - كثيرة التغير .

وكانت اللغة - ومازالت - وسيلة التواصل، وحيدة أحيانا ، ومقترنة بأعوان فى أحيان أخرى . لا أقصد التواصل بين أفراد المجتمع الحى الواحد، أو أفراد المجتمعات الحية المتقاربة والمتباعدة وحدهم ، بل أقصد أفراد

المجتمعات المتعاقبة منذ دب الإنسان على وجه الأرض وإلى اليوم ، بل وإلى الغد ، ولولاها لذهبت فى الظلمات الحالكة حضارات عظيمة أبدعها الإنسان .

وأقرب الأمثلة بالنسبة لنا نحن المصريين : الحضارة المصرية القديمة . فلولا نقوش حجر رشيد ، وماتبه من حل طلاس اللغة الهيروغليفية ، وما دونه الإغريق ، ما كنا عرفنا إلا مجموعة من الخزعبلات الفجة التى دونها المؤرخون العرب وغيرهم عن فجر التاريخ المصرى .

ومن ثم يقول المفكرون من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا والمؤرخين ثم اللغويين : اللغة هى فكر الإنسان .

والإنسان منذ كان ، وحيث كان ، حريص كل الحرص على سلامة لغته ، لأنها أداة التفاهم والتعارف . ونظرة سريعة إلى ما تقوم به الأم والإخوة لتقويم لسان الطفل الصغير تكفى للتدليل على ذلك .

ويرى علماء النفس أن ما يستقبله الإنسان عن طريق السمع أضعف بروزا وأقصر بقاء مما يستقبله عن طريق البصر . فإذا اجتمع للمستقبل السمع والبصر ضمن الكمال والوضوح وسهولة التذكر . ومن هنا جاءت أهمية التليفزيون والسينما فى إدراك الأشياء .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ما يدركه الإنسان عن غير وعى ودون قصد ، مثل كثير مما يسمعه فى الإذاعات والتليفزيونات ، فى أثناء قيامه بأعماله ، أن هذه المدركات تترسب فى الإدراك والوجدان . فإذا ما كثر ترديدها قوى وجودها فى اللاوعى ، وأمكن أن تتسرب إلى الألسنة والأقلام حتى لو كان صاحبها لا يريد .

وإذا كان هذا تأثير وسائل الإعلام فىنا نحن الكبار الذين يعرف كثيرون منا الصواب والخطأ ، فإن تأثيرها فى الصغار أكثر وأفدح ، لأنهم مازالوا فى طور التعرف على أسس اللغة .

ومن هنا كانت ضرورة حرص كل وسائل الإعلام على سلامة اللغة ، سلامة المفرد والمركب ، نطقا وصيغة وقواعد وتركيبا فلا يضارعاها أى مدرس فى نشر الصواب اللغوى أو الخطأ.

والأمثلة على ما تستطيع أن تفعل قريبة وحاسمة .

فقد استطاعت السينما والإذاعة ثم التلفزيون نشر لهجة القاهرة فى جميع أرجاء الوطن العربى ، فصار المصرى يستطيع أن يتفاهم بلهجته فى كل بلد عربى على وجه التقريب: وصارت هذه اللهجة تنعت بالمصرية ، وكأنه لا يوجد فى أنحاء مصر لهجات غيرها ، بل إن هذه اللهجات تعاني صراعا عنيفا تشنه لهجة القاهرة للقضاء عليها .

كذلك أشاعت الصحف والسينما والإذاعة والتلفزيون لغة وسطا سميت بالدارجة يتفاهم بها المتعلمون ، وكانت لغتهم قبلا العامية أو أقرب ما يكون إليها .

وأشاعت كلمات عربية خالصة فى مدلولات جديدة، فسرت على السنة العوام وأشباه العوام من أثر التكرار .

وطبيعى أن الخطأ عندما ينسل إليها سيجد الترحيب الذى وجدته الصواب ، كما نسمع الآن : الملفت للنظر، والمبهر للعين ، والمعاق وأثغل والمباع ، والبدء.

والنتيجة المحتمة وجوب الحرص على سلامة اللغة : الفصيحة والدارجة ، فى كل وسائل الإعلام.

## لغتنا العربية \*

من أعجب الأمور حال لغتنا معنا أو حالتنا مع لغتنا . نرتفع بها - أو بعضنا - إلى أعلى عليين . ونهوى بها - أو بعضنا - إلى أسفل سافلين.

---

\* جريدة الأهرام - ١٩٨٥/٩/٨ .

يغلو بها فريق من رجال ديننا فيغلفها بقداسة مطلقة ويزعم أنها لغة الجنة أو لغة الآخرة، فيجعلها لغة الإنسان الأول ، ولغة البشر فى زمنهم الأخير، أى يجعل منها لغة إلهية .

ويتوسط قوم منا فيرون أن القرآن - الذى نزل بها - منحها قداسة خالدة خلوده، وصيانة باقية ببقائه .

وزعم قوم أنها ( الفصحى )، لا تدانيها فى عبقريتها لغة أخرى ، فهى أوسع اللغات مفردات، وأقدرها على تلبية الحاجات، وأحسنها استعدادا للإبداع الفكرى والفنى .

وفى الوقت نفسه نجد بيننا من يزعم أنها ليست لغتنا، وأننا نستخدم فى حديثنا لغة مختلفة عنها فى مفرداتها وتراكيبها وأصواتها، يجب أن نقر طائعين أو كارهين أنها لغتنا الحق، وأن نهجر اللغة الأخرى فى التدوين العلمى والأدبى لأنها لغة ميتة تخنق أنفاس أدبنا، وتشيع الموات فى جنباته.

ونجد بيننا من يزعم أنها لا تصلح لغة للعلم الحديث، ويستخدم لغة أجنبية لذلك العلم، فى الدرس والتدريس العاليتين، ويعلن أن استخدام العربية لغة فى العلم يفصل بين من يستخدمها ومراكز العلم الراقى فى العالم الأجنبى الذى يستخدم الإنجليزية أو الفرنسية .. أو غيرهما من اللغات الأوربية، ودعاوى أخرى كثيرة .

ونجد بيننا من يظن إتقان العربية سمة من سمات التأخر الاجتماعى، وإتقان لغة من اللغات الأجنبية من سمات التقدم الحضارى. بل نجد بعض من مهنتهم الحديث تعوُّج العربية على ألسنتهم دون أن يفطنوا، أو يعوجون بها عن عمد، كيلا يوصمون بالتخلف . ونجد بيننا الدكاكين والمتاجر تتحول أسماؤها على ألسنتنا إلى ( بوتيكات)، والمقاهى إلى ( كافيتريات)، وهى كلمة مأخوذة من الكلمة العربية، أو إلى ( بوفيهات ) ، وأمثال ذلك كثيرة .

ونجد بيننا من يتخذ من الفصحى ومن يقوم بتدريسها ومن يلتزم بها موضع سخريّة وتهكم، يعرض ذلك في مسارحنا وأجهزة إعلامنا وحفلاتنا. ١٠

ونجد كل ذلك والكثير من أمثاله دون أن نجد من ينتبه له أو يأبه به أو يستنكره، فإن فعل استنكر الناس فعله واستثقلوا دمه، استثقالهم لمن يطيل الحديث عن الأخطاء اللغوية في مناقشة الرسائل الجامعية أو يعدها في تقييم الامتحانات الدراسية .

الحق أننى لم أر أمة أخرى تفعل ذلك بأحد مقدساتها، إذ اللغة أحد مقومات الأمة، وأحد شعاراتها المقدسة .

إن الجامعات الأوروبية - فيما قيل لى - لا تقبل مناقشة أية رسالة إذا تعدت أخطاؤها مستوى معيناً، مهما كان تخصصها ، بعداً أو قرباً عن المجال اللغوى ، ومهما كان مستوى إعدادها امتيازاً أو جودة .

إن من المتع الكبرى أن تستمع إلى اللغة الإنجليزية ينطق بها المذيعون فى الإذاعة المسموعة أو المرئية أو أحد الممثلين أو الممثلات من الإنجليز على أحد المسارح أو فى إحدى السينمات. واستمع إلى ( لغتنا الجميلة ) على ألسنة مقدمات برامجنا ومقدميها !

قد صدر قانون أيام المد العربى ، فى العهد الناصرى يحرم إطلاق أسماء أجنبية على الدكاكين. ولكننا الآن ننظر إلى المتاجر الكبيرة والصغيرة بل أصغر الدكاكين تحمل ما شاءت من عناوين، وهى لا تشاء إلا الأجنبية عنا. فنرى العجب العجاب، وكأن الشارع المصرى متحف للأسماء الأجنبية لا يظهر بينها اسم عربى واحد وما أحق أمير شعرنا أن يقول :

حرام على بلابله الدوح      حلال للطير من كل جنس

وقد جلست مرارا أمام التليفزيون الإيراني - فى عهد الشاه الراحل - فلم أرىهم يعرضون حلقة أجنبية دون أن يكونوا قد حولوا حوارها إلى حوار باللغة الإيرانية ( دويلاج ). وكذا الأمر عند الأمم الأخرى غيرنا.

وإذا كان المجتمع المصرى لا يخجل من الخطأ اللغوى عندما يبين له، فإننى أقترح أن يمنح مجمع اللغة العربية سلطة تصحيح ذلك الخطأ، وأن تمنح إدارة الرخص أو ما يماثلها حق الاعتراض على العناوين الأجنبية بل أدعو إلى تغيير ما وضع فعلا، والعودة إلى ما نعرف من عناوين مأخوذة من بيئتنا العربية المصرية ومن ثقافتنا الإسلامية.

وإن فى القصة التالية ما يكشف مدى عدم مبالاتنا واستهتارنا بلغتنا.

اعتمد العلماء فى معرفة التاريخ الفرعونى فى أول الأمر على ما سطره الرحالة والمؤرخون الإغريق عنهم، فوصلت إلينا أسماء أوزيريس، وحوريس، وإيزيس، وممفيس إلخ .

ولكننا حللنا طلاس الخطين الهيروغليفى والديموتيقى وعرفنا حقيقة الأسماء المصرية . فتبين لنا أن الاسم الصحيح لأوزيريس هو أوزير، ولحورس هو حور وإيزيس هو إيزا، ولمفيس هو منف. وعلى الرغم من ذلك التزم علماءنا إلى اليوم الصور الإغريقية للأسماء وأهملوا الأسماء المصرية .

ولذلك العمل عيوب جملة. أهمها العيب القومى، عندما نطلق على أعلامنا أسماء غريبة عن أسمائهم الحقيقية. ويكفى أن أتساءل : هل يمكن أن نطلق على ابن سينا اسم أفيسينا، وعلى ابن رشد : اسم أفروس ، وعلى القاهرة: كايرو، كما يفعل الإنجليز فى هذه الأسماء. ولو فعلنا هل يمكن أن نتعرف على حقيقتها. أنكر أن أحد المنتسبين إلى العلم - عن غير حق - ترجم كتابا إنجليزيا عن القاهرة فلم يفتن إلى حقيقة الأسماء المذكورة فى الكتاب . فتحولت حلب عنده إلى ألبو، وعسقلان إلى اسكلون ، والغورى إلى الجورى، فصار الكتاب فضيحة اضطر معها المشرفون عليه إلى سحبه من الأسواق .

أضيف إلى ذلك الفصل بين الاسم الحقيقي وما تطور عنه أو ما يحتمل أنه تطور عنه. فربما كان حور على صلة ببينات الحور التي يعتنى بها أبناء الصعيد عند كسوف القمر. وربما كان رمزي على صلة باسم رامس أو رعمس، الذي حوّل في اليونانية إلى رمسيس أو رعسيس.. وأيزا على صلة بالعزى في جاهلية العرب.. إلخ لا يسعني هنا إلا أن أناشد الأصدقاء من علماء الآثار المصرية أن يعطونا في كتاباتهم الأسماء المصرية، في صورتها المصرية، لأن هذا حقها وحقنا عليهم. وأن أناشد كل كاتب أن يعطينا الاسم اللصري، في صورته العربية الحق، وأن أناشد كل مصري وعربي أن يرعى الله والوطن وكرامته الذاتية في لغته، حتى تزول عنها وحشتها، وتمحى حيرتها وغرايتها... وتعود اللغة القومية المحترمة على كل لسان، وفي كل فكر، وعند كل فئة من فئات المجتمع المصري والعربي.

## تيسير اللغة

كثر الحديث في العصر الحديث عن صعوبة اللغة العربية، وحتمية تيسيرها. وفي هذا الصدد أقدم التوصيات الآتية :

اللغة السليمة :

يجب - قبل كل شيء - الاتفاق على اللغة التي نريد أن نستعملها ، وأن نحافظ عليها : أهى لغة العصر الذى سموه بعصر الاستشهاد ووصفوا لغته بالفصيحة

أم لغة أدباء العصر العباسى

أم لغة الأدباء الملتزمين من المحدثين بل المعاصرين؟

فما أكثر ما يخطئ بعضنا بعضا فى مدلول مفردات ، أو استعمال كلمات أجنبية شاعت أو كلمات يُظن أنها عامية ، أو مصاحبات غير ما كان عند القدماء ، أو ما شابه ذلك .

ثم يجب أن يُعد التلفظ هو حَكَم الكتابة الأول بل الوحيد، وأن تطرح الاعتبارات الميتافيزيقية وشبه المنطقية ، وأن يبت فى أمر الهمزة فلا تكتب إلا فى صورة واحدة . فنتخلص من الحروف الزائدة والناقصة معا .

## النحو

تيسير النحو وحسن عرضه . وقد تم - فى هذا المجال - حذف نظرية العامل وبعض ما ينتج عنها ، والعلل الثوانى والثالث . ويبقى :

- إدخال اجتهادات المجامع اللغوية العربية فى الكتب الدراسية.
- إهمال القواعد الافتراضية ، ونادرة الاستعمال ، التى مات استعمالها .
- عدم تسليط المنطق الصورى على الواقع اللغوى المخالف له ، مما يجبر على التأويل والتعسف.
- الاعتراف بصحة أعراف غير قريش من القبائل ، إذا ما شاعت فى الترات والاستعمال الحديث ، مثل لهجة ( يتعاقبون فيكم ملائكة ) .

المناهج الدراسية

تبسيط المقررات واتساع الطرق الحديثة فى عرض التراثى منها كالنحو  
والبلاغة .

التخفف من متطلبات الحفظ.

اختيار الموضوعات التى تمس حياة الطلاب والتى تنبع من الحياة المعاصرة.

### طرق التدريس

- حسن اختيار المدرسين. بحيث يتوفر فيهم حب مهنة التدريس ، وحب  
اللغة العربية ، وحب الطلاب، والقدرة على إنشاء علاقات طيبة تدفع  
إلى حب اللغة .

- تتبّع الجديد الصالح من طرق التدريس، لضمان تشويق الطلاب وإقبالهم.

- التزام جميع المدرسين - على اختلاف تخصصاتهم - التحدث بلغة  
سليمة ، لتعويض التلميذ عن المجتمع الذى كان من المفترض أن يأخذ  
لغته منه.

- تخصيص درجات- ولو رمزية - لسلامة اللغة فى كل الامتحانات .

- عقد الاختبارات الشفوية التى يلزم الطلاب فيها بأداء الحديث فى لغة  
سليمة .

- فرض إجراء الحوار اليومى بين أعضاء هيئة التدريس والتلاميذ بلغة  
سليمة .

- تخصيص درجات محددة من درجات أعمال السنة لمن يتحدث من  
التلاميذ بلغة سليمة .

- عقد الندوات والمحاضرات التى يستمع فيها الطلاب إلى اللغة السليمة،  
ويتحدثون بها مشاركين ومحاورين .

- توجيه الطلاب إلى الاستماع إلى من يحسن الحديث بلغة فصيحة فى أجهزة الإعلام، وإلى كبار قراء القرآن، وجعل هذا الاستماع من الهوايات المشجعة .

- العمل على رفع المكانة الاجتماعية لمدرسى اللغة العربية ، وإنشاء حوافز وامتيازات لهم، وتخفيف الأعباء عنهم.

### التوعية الاجتماعية

من الأمور المهمة أيضا إجراء حملة توعية ، بل ربما احتاج الأمر إلى عدة حملات .

أولا: لتنقية صورة اللغة العربية والمحافظين عليها من التشوهات والشوائب التى لحقت بها، وجعلت كثيرا من أفراد المجتمع يتخذونها مادة للتندر حتى فى المحافل ووسائل الإعلام ، ولعدم الخلط بين المحافظة على اللغة وبين التقعر فيها والتشادق بها، الأمر الذى كان كريها حتى عند النحاة القدامى.

ثانيا : إبراز الصورة الحقيقية التى يجب أن تتجلى فيها لغة مثل العربية، ذات تراث حضارى شديد الخصوبة، ومتعدد الجوانب، وممتد الآماد، وكان له أثره الذى لا يمكن إنكاره فى مجرى الفكر الإنسانى وتطوره.

ثالثا : لإبراز أهمية اللغة الأم لدى الأمم التى نضج تفكيرها، وتعرف مقومات كيانها ، وتعتمد بذاتها ، وتحرص على تجيل أبنائها لهذه المقومات مهما بلغ مقدار رمزيتها .

فالمجتمع السليم هو الحكم الوحيد

الذى له الحق فى احتضان الصالح من كل شىء . فيضمن له الحياة والبقاء والتطور ، وله الحق فى طرح الفاسد والمشوه ، فيقدر له الفناء.

## اللغة العربية فى عصر العولمة

العولمة أو الكوكبية شعار تردد على ألسنة البشر المتكلمين بشتى اللغات فى جميع أرجاء الأرض، فى السنوات الأخيرة، بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بخاصة.

وأحب أن أبسط الأمر على نفسى وقرائى ، فلا أخوض فى الكثير الذى قيل فى توضيح هذا الشعار، وأدلف مباشرة إلى تصورى الخاص له. ومعناه عندى إزالة الفواصل بين أقطار العالم لتصير الكرة الأرضية كلها قرية عالمية كما يقال، وعمدا ذكرت الفواصل مبهمه دون أى نعت .

فإذا عنينا بالفواصل الفواصل السياسية تذكرنا أن الرغبة فى إزالتها ليست من بنات القرن العشرين أو الحادى والعشرين، بل هى قديمة كل القدم، واستبدت بكثير من القادة والشعوب ، فوجهت أفكارهم وخطواتهم، وفى الصدارة منهم الإسكندر المقدونى، وقمبيز الفارسى، وجمهرة من أباطرة الرومان وخانات التتار، وانتهاء بهتلر الألمانى .

ولكن تحقيق الرغبة فى إزالة هذه الفواصل اعتمد قديما على القوة العسكرية الباطشة. أما فى العصر الحديث فيرتدى زى السلم، ويحتج بالاتفاقات المتعددة التى فرضتها هيئة الأمم المتحدة. ومع ذلك لا يخلو الأمر من القسر. وأقرب الأمثلة أمامى - وأنا أكتب هذا المقال - ما يحدث فى القطر الأوروبى النمسا. فقد فاز حزب الحرية اليمينى فى انتخابات لم يتهم أحد نزاهتها وتعبيرها عن ميول الشعب النمساوى، وحصل على عدد من الأصوات يجعل من حقه الديمقراطى أن يؤلف الوزارة منفردا أو مؤتلفا مع غيره . وما إن بلغت هذه الأنباء مسامع العالم الأوروبى الأمريكى حتى أصدر التحذير بعد التحذير، مهددا بالمقاطعة وما وراءها. وفى الغيب ما يكشف عنه المستقبل. وذلك خرق للديمقراطية النمساوية والغربية لا يمكن ستره.

وإذا عنينا بالفواصل الاقتصادية تذكر المؤرخون منا وقراء التواريخ، وقائع كثيرة وحروبا قصيرة وطويلة ثبتت بسببها . بل يذهب كثير من المفكرين إلى أن الاقتصاد وراء كل الحروب والمنارعات . وفى هذه السنوات توضع الاتفاقات الدولية واحدة بعد أخرى ، لإزالة الفواصل الاقتصادية ، وفتح أسواق الدول أمام المنتجات الأجنبية دون موانع أو معوقات .

وإذا عنيينا بالفواصل الفواصل الاجتماعية والثقافية برز أمامنا اتفاقات الجات وما سمي بحقوق الإنسان، وإعطاء بعض الدول القدرة حق الحفاظ عليها فى داخل كل دولة، مهما كان مدى الاختلاف بين النمط المحلى والنمط الذى يُصوّر على أنه عالمى .

ولما كان هذا المجال هو الذى أستطيع الحديث عنه، فإننى أقف عنده بعض الوقت. فالكرة الأرضية تضم عدة ثقافات جديدة كل الجدارة بأن توصف بالدولية أو العالمية، أريد بذلك أنها لا تنحصر فى دولة مجاورة لها، مثل الثقافتين اليهودية والكونفوشيوسية اللتين تهيمنان على الشرق الأقصى، والثقافة الإسلامية التى تهيمن على قلب العالم، والثقافة المسيحية الأرثوذكسية التى تهيمن على روسيا واليونان وما جاورها وتنتشر انتشارا واسعا فى مصر والسودان وإثيوبيا وغيرها، إضافة إلى الثقافة المسيحية الكاثوليكية والبروتستنتية التى تهيمن على بقية العالم .

وأهلا وسهلا بكل ما يتصل بتبادل المعارف بيننا وبين هذه الثقافات جميعا .

أهلا وسهلا بإتاحة كل الفرص للإطلاع على جميع الثقافات، لا أقول الثقافات العالمية التى ذكرتها ، بل والثقافات القطرية والمحلية ، التى تصعب الإشارة إليها واحدة واحدة ، وللتفاعل الطوعى معها .

ولكن النظرة السريعة إلى اتفاقات العولة وشروطها والوقائع التى فرضتها أو أرادت ذاك تؤدى إلى اليقين بأن العولة - فى الحقيقة - إنما هى هيمنة التصور الغربى للثقافة على بقية أرجاء الدنيا. وإن شئنا الدقة قلنا تصور المتحدثين بالإنجليزية ، وإن شئنا مزيدا من الدقة قلنا التصور الأمريكى .

يتمثل ذلك أوضح التمثيل فى اتفاقية حقوق الإنسان. فهى تنادى بحقوق الإنسان الفرد. وتتغاضى عن حقوق الجماعات التى تعيش بينها، وأقربها إلى ذهن عائلته التى أعاشته، فإنها تحرمها حق التوجيه والضبط وقيام المجتمع الأمريكى على الفرد أمر لا يحتاج إلى تصريح أو تدليل.

ورافق هذا الاتجاه العالمي ثورة فى وسائل المعلومات والاتصال ، ربما كانت أحد أسبابه أو أحد عوامل انتشاره السريع ، وقد اعتمدت هذه الثورة على تطور سريع تكنولوجيا إلكترونى.. إلخ ، أنتج أجهزة غاية فى التعقيد.

ولما كانت هذه الثورة قد بزغت تحت مظلة اللغات المنتمية إلى الخطيين اللاتينى والإغريقى ، فقد صُنعت أجهزتها بحيث تناسبهما. ولما كنا أصحاب خط مختلف احتاج الأمر إلى تعديل فى الأجهزة وفى الخط العربى ، ليتاح لنا الاستفادة منها، والحصول على المزايا التى تتيحها.

ومن ثم أعتقد أننا - نحن العرب - يجب أن نحسن مواجهة الواقع الجديد كى نلحق بركب التطور العالمى الشامل والغالب والسريع. يجب أن تكون لدينا الرغبة والجرأة والتخطيط.

أولا يجب أن يكون لدينا الوعى بذاتنا، وعناصر هذه الذات من ثقافة ولغة: ثقافة تحتضن كنوزا من القيم والفنون، ولغة تحتضن كنوزا من فنون الأدب وأنواع العلم. يجب أن يكون المفكرون منا على وعى دقيق بأهمية الثقافة واللغة، فى بقاء الشعوب، وحثها على الصراع من أجل الازدهار والتقدم.

لست أنا - ولا نحن - المثقفين العرب - الذين يرفعون قدر الأدب والعلم واللغة عندنا، من باب الزهو الكاذب ولكن فعل ذلك كل من اشتغل بها فى موضوعية ، وعبر عنها فى صراحة.

ولذلك فهى تدعونا إلى ألا نفرط فيها، بل فى كياننا.

إن من يعطون شركاتهم ومحللاتهم عناوين أجنبية غير مستلهمة من تراثنا الوطنى أو القومى،

ومن يتراسلون معا منا باللغة الإنجليزية فى معاملاتهم،

ومن يكتبون بالتراسل مع الأجانب بالإنجليزية دون إصحابها بنص عربى كما تستلزم الدواعى الوطنية، وكما تفعل الأمم الواعية،

ومن يشوهون أسماءهم العربية لتكون ذات مسحة أجنبية، فيصير عمودى  
أمودى، ورقية روكيه،

ومن يشوهون تراكيبنا اللغوية أو يقبلون بها، ليقال النيل هيلتون، والجيزة  
شيراتون، وما شابه ،

ومن يسخرون من المحافظين على سلامة العربية دون تشدق أو تقعر يكفى  
أن نبي الفصاحة كرههما ،

ومن يسخرون من الحاكم الذى يضع قوانين للحفاظ على اللغة العربية، كما  
فعل بعض الصحافيين المصريين منذ سنوات،

ومن تحرف صوت بعض الحروف من المذيعات ، ظنا منها بأن ذلك  
يجعلها من المتحضرات.

وفى عبارة واحدة كل من لا يقدر - وأقول يقدر - لغته وثقافته إما  
جاهل بذاته وما تفرضه عليه أو جاهل بما نملك من كنوز رائعة، يواربها أو  
يحط من قدرها حاضرا المهيب لا حقيقتها الرائعة.

: ولا يعنى هذا أن نقنع بما لدينا (ببهورين مفاخرين، وإنما يعنى أن يدفعنا  
إلى أن نكون أبناؤه، أبناؤه الذين يعيشون فى القرن الحادى والعشرين،  
يستهلون هذا القرن ما لا يكفر بالتراث ويضعهم فى مواكب النور.

وإذا كنت قد جمعت بين اللغة والثقافة أو التراث فإننى لا أعنى بذلك أن  
أمرهما واحد، فالدفاع عن التراث - فى خلدى - أيسر كثيرا من الدفاع عن  
اللغة .

فإننى أعتقد أن أحدا واعيا منا لا يمارى فى أن تراثنا مثل تراث كل الأمم:  
يحتوى على التافه الساقط الذى أنتجته عصور الضعف، ويحتوى على ما كان  
صالحا لزمانه ولم يعد كذلك فى زماننا، ويحتوى على ما ينبو عنه الذوق  
المعاصر.

وعلى رغم كل هذا، لايمارى إلا الجاهلون والمتعصبون فى روعة هذا التراث، وامتلاك كثير من نماذجه وفنونه مقومات الخلود.

واذن علينا أن نعمل عين التمييز فى هذا التراث، ونسقط ما يحسن إسقاطه، ونرفع ما هو جدير بالرفع والبقاء والاستلهاًم.

أما اللغة العربية فإنها تواجه - فى هذا العصر - الهجوم :

ممن يفضلون عليها اللغة الإنجليزية التى يرونها لغة العلم والابتكار والتقدم، أو يرونها لغة التجارة العالمية أو الواسعة المدى،

وممن يرون أنها قاصرة عن ملاحقة التقدم العلمى،

وممن يرون أن قواعدها كثيرة ومعقدة ومن العسير الإلمام بها والسير وفق أحكامها،

ومن يرون فى استخدامها تخلفاً ، وفى استخدام اللغات الأخرى تحضراً.

والحق أن قواعد العربية ليست أكثر ولا أصعب من قواعد الفرنسية والألمانية مثلاً.

والحق الذى لا شك فيه ولا جدال فيه أن اللغة هى الإنسان الناطق بها ، أى أن العربية هى نحن ، أو إن شئنا الدقة هى فكرنا، أى ما تحتوى عليه عقولنا من معارف. فإذا قصرت عن العلم الحديث فلأننا نحن المقصرون، وإن واكبته فلأننا واكبناه . فلا يمكن أن نتقدم نحن وتقصّر لغتنا، وأمامها أبواب الوضع والاشتقاق والتوسع والمجاز والتعريب والاستعارة.

الواجب إذن على مجامعنا اللغوية أن تسرع فى مواجهة كل كشف جديد، وأن تتفق فيما بينها على مصطلح واحد، وأن يكون لها حق فرض استعماله على الجميع.

والواجب أيضاً على مدارسنا الابتدائية والإعدادية ( المتوسطة) والثانوية أن تجعل الهدف من تعليم قواعد العربية القدرة على التعبير السليم كتابةً وقولاً.

فالعناية الآن تكاد تقتصر على تعليم التلميذ القواعد وتختبره في حفظها. ولكنه يسقط سقوطا شنيعا عندما يستعملها. وما أظن أن رجال التربية في العالم العربي يجهلون الطرق إلى بث هذه القدرة في التلاميذ. وكثيرا ما تتهم الجامعات بالتقصير في هذا الصدد، ويغفل من يفعل ذلك عن أنه ليس من شأن الجامعات، وإنما هو من شأن سنى الصبا المبكر.

وواجب على أجهزة الإعلام المتعددة أن تلتزم الصحة في كل ما هو جدير بها ، لأن أثرها عظيم في نشر الصواب أو الخطأ.

ويبقى أهم واجب وهو واجب علماء اللغة العربية ، الواجب الذى يجب أن يؤدوه لتعيش العربية معيشة القدرة والكفاءة في عصر الأجهزة العلمية.

إن بعض العلماء يظنون أن فصحى الأمس يجب أن تكون فصحى اليوم. وهذا ظن بعيد كل البعد عن الصواب، يهملون قرونا من الاستعمال الحى للغة، ذلك الاستعمال الذى يجرى من التغيير المحسوس وغير المحسوس، وربما كان أقرب ما أجرت من تغيير التخفف من بعض الأمور، والميل إلى بسط القياس على كل شيء، وإهمال الشواذ.

فإذا نظرنا إلى الخط وجدنا المحدثين يحافظون على الألف الوسطى التى كان يهملها القدماء، عادة، فيكتبون هارون وإسحاق وأمثالهما بالألف، ووجدنا كثيرا منها يأتى بالواو المحذوفة من داود، أى أنهم مالوا إلى أن تمثل الكتابة النطق. وهذا حق، يجب أن يراعيه العلماء، ويطبّقوه فى كل الأحيان. ويجب أن يهملوا الاعتبارات التى أدت إلى مخالفة الخط للنطق، مثل:

الرغبة فى التفريق بين المنتهى بواو أصلية والفعل المسند إلى واو الجماعة، الذى أضافوا إليه ألفا لا يُنطق، على رغم أن السياق وحده يكفى فى التمييز فى كل الحالات .

الرغبة فى التفرقة بين الألف التى أصلها واو فى الثلاثى فتكتب ألفا مثل غزا، والألف التى أصلها ياء ، فتكتب ياء مثل رمى، على الرغم أن نطق الحرفين واحد .

الرغبة فى التفرقة بين عَمْرٍ وَعَمْرُو، بزيادة واو غير منطوقة على الأخير.

الرغبة فى التفرقة بين فئة ومائة، لتشابههما الكبير فى الخط القديم غير المنقوط، مما أدى إلى أن يمد كثيرون فتحة مئة.

وأمثال ذلك كثير، بل هناك كلمات يخالف النطق الرسم دون اعتبارات معروفة .

والمفردات التى مات بعضها أو كاد . ويكفى أن أشير إلى بعض الكلمات القرآنية. التى كان المتوقع أن يتسع انتشارها لوجودها فى القرآن المرتل فى كل آن، ولكن ذلك لم يقدر لها. وأمثلة بها بضيضى بمعنى ظالة، وكفات الموجودة فى قوله تعالى : ( ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) ومعناها الأرض التى يضم فيها الشئ ويقبض ، إذا صح ذلك فى الألفاظ القرآنية، فهو أكثر صحة فى غيرها من الألفاظ.

وطبيعى أن يتغير مدلول كثير من الألفاظ، مثل كلمتى غزو وفضاء فى قولنا غزو الفضاء.

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى بعض التراكيب. فمال الإنسان الحديث إلى التبسيط والتعميم والاحتكام إلى القواعد العامة وتجنب الشذوذ. فالمتكلم الحديث إذا أراد أن ينطق بمثل قوله تعالى : ( يوم يأتى بعض آيات ربك، لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) أضاف ما فقال: ما لم تكن آمنت من قبل. وأمثلة هذا كثيرة ..

أضيف إلى ذلك أن هناك أنماطا من القول مصطنعة. فقد قامت إحدى تلميذاتى بدراسة التنازع والاشتغال، واستخرجت من كتب النحو القديمة

الأنماط التي أعلنها النحويون. ثم بحثت عن هذه الأنماط في عدد من السور القرآنية والنصوص الأدبية القديمة والحديثة نثرا وشعرا، فاكشفت أن كثيرا من هذه الأنماط لم ترد في الإستعمال. والواجب على النحاة أن يطرحوها من كتبهم.

بل أقول إن الطرح يجب أن يشمل أبوابا نحوية كاملة عدل عنها الاستعمال الحديث أو كاد. ونجعل من الاستعمال معيارا للعناية والإهمال، لأن القواعد اللغوية إنما توضع للتوظيف لا للمعرفة .

ويجب أن يخلو النحو من آثار نظرية العامل التي عدلنا عنها . وإلا كيف يصدق التلميذ أن السماء في قوله تعالى : ( إذا السماء انفطرت ) ليست مبتدأ، وأنها فاعل لفعل محذوف، وأن أصل القول: إذا انفطرت السماء انفطرت.

بل لماذا يعنى النحويون التلاميذ بجواز التقديم والتأخير في كل باب من أبواب النحو أو عدم جوازها، ولا يطلقونها قاعدة عامة: بما أن العربية لغة إعرابية يجوز للأديب أن يقدم بعض الكلمات أو يؤخرها لأسباب خاصة به، شريطة الاحتفاظ بموقعها الإعرابي.

ولماذا يعنونهم بالتقسيم إلى جمع مذكر سالم وملحق به، وجمع مؤنث سالم وملحق به، ويكثرون من اختبارهم في الفروق بينهما، ولا توضع قاعدة تجمع الفئتين ، وذلك أمر يسير.

إن العولة وما توجده من ظروف جديدة تثير أمام العربية تحديات تحتم على أبنائها أن يتسلحوا بالوعى الداعى إلى الحفاظ عليها، والجرأة على وضع المعايير السليمة لقبول أو رفض قواعد الخط والنحو، والسعى الدائب إلى إيجاد الطرق التي تؤدي إلى بث القارة في التلاميذ على التعبير السليم .

## محتويات الكتاب

١	كلمة
٣	التنبه إلى تأثير البيئة
٤٥	اللغة العربية والعلوم الحديثة
٦٧	دراسة في كتاب العين
٨٣	فائت تاج العروس
٩٧	وسائل الإعلام واللغة
١٠١	لغتنا العربية
١٠٥	تيسير اللغة
١٠٩	اللغة العربية في عصر العولمة